الفصل الثالث

الدولة القديمة

من الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة
(٢٧٨٠ – ٢٢٨٠ ق.م.)

- الأسرة الثالثة (٢٧٨٠- ٢٦٨٠ ق.م.)
- الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ – ٢٦٥٠ ق.م.)
- الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ – ٢٤٢٠ ق.م.)
- الأسرة السادسة (٢٤٢٠ – ٢٢٨٠ ق.م.)

الملك منكاورع

الدولـــــة القديمـــــة

من الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة

(٢٧٨٠ - ٢٢٨٠ ق.م.)

كان لإضطراب الأمور فى النصف الثانى من أيام الأسرة الثانية أثر مباشر على مستقبل مصر . فلا جدال فى أن ثورة « پرى إب سن » على عبادة حورس أثرت على سير الأمور ، ولا جدال أيضاً فى أن ما تبع ذلك من تطاحن فى البلاد كان ذا أثر سيىء على تقدمها ، ولكن لم يمض إلا وقت قليل بعد أن انكشفت تلك الغمة حتى نرى مصر وقد بدأت تعوض ما فاتها ، وكأنما كان ذلك التطاحن وعدم الاستقرار دافعاً لها فيما بعد ، فتقدمت فى شتى النواحى واستكملت مقومات مدينتها التى أصبحت مميزاً لها على مر العصور ، كما أوضحنا فى نهاية الفصل السابق .

وفى هذا الوقت الحاسم فى التاريخ الحضارى للبلاد ، ذلك الوقت الذى كانت فيه مصر تتدفق شباباً وحيوية ، جلس على عرشها ملك قوى حازم ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عصر جديد .

الأسرة الثالثة

(٢٧٨٠ - ٢٦٨٠ ق.م.)

وبالرغم من أن أول ملوك هذه الأسرة وهو الملك زوسر كان على الأرجح ابنا لآخر ملوك الأسرة الثانية فقد اعتبره القدماء مؤسسا لأسرة مالكة جديدة .

بدأ زوسر [١] حياته كغيره ممن سبقه من الملوك وبنى لنفسه مثلهم قبراً على شكل مصطبة كبيرة من الطوب اللبن (٩٥ متراً فى الطول × ٥٠ متراً فى العرض ، وارتفاع ١٠ أمتار) ، ولكنه لم يشيدها فى أبيدوس بل شيدها فى المنطقة المعروفة الآن باسم بيت خلاف جنوبى قنا ، عثر فيها على كثير من الأوانى وعليها أختام تحمل إسم الملك وتحمل أسماء بعض موظفيه والإدارات المختلفة التى كانوا يتولون شئونها [٢] .

وشاء حسن حظ مصر أن يظهر فيها فى ذلك الوقت أحد النوابغ الذين تركوا أثراً واضحاً فى تاريخ البشرية ، وقضت عناية الله أن يكون على عرشها ملك حصيف الرأى عرف قيمة نبوغ ذلك الشخص فمد له يد العون ومكنه من تحقيق آرائه ، فخلد إسم الملك زوسر وخلدت أعماله ، وتقدمت مصر فى عهده تقدماً كبيراً فى جميع النواحى .

إيمحوتب : لسنا نعرف على وجه اليقين إن كان ، إيمحوتب ، بدأ حياته فى عهد الملك ، خع سخموى ، وكان من بين موظفيه ، أو أنه ظهر فقط فى أيام زوسر ، وعلى أى حال فان اسمه قد ارتبط باسم ذلك الملك الأخير وحده ، سواء أثناء حياته أو فيما تلا ذلك من أجيال ، فإن المصريين خلدوا اسميهما معا وظل الناس يذكرونهما حتى آخر أيام التاريخ المصرى . واعتبر الكتاب المصريون فى الدولة الحديثة ، إيمحوتب ، إماما وحامياً لهم ، وكان يحرص كل كاتب قبل بدء عمله على إراقة بضع قطرات من الماء قربانا له .

كان الملوك حتى ذلك العهد يدفنون فى قبور على هيئة مصاطب لا تمتاز فى شكلها العام عن قبور رعاياهم إلا بعظم حجمها وفخامتها ، وكانت تبنى من الطوب اللبن ، وإن كانت بعض أجزائها الداخلية ، وعلى الأخص حجرة الدفن ، تبنى من الحجر .

وبنى زوسر قبره الملكى فى الجنوب على نمط من سبقه من الملوك ، إن صحت نسبة قبر بيت خلاف إليه ، ولكن إيمحوتب فكر فى تشييد قبر آخر لسيده فى جبانة العاصمة الشمالية ، ووضع تصميمه ليكون أفخم من أى قبر شيد قبل ذلك الوقت لأى ملك قبله ، وكانت الفكرة الجريئة الأولى فى تشييد ذلك القبر هى أن يكون مبنيا بكتل من الحجر بدلا من الطوب اللبن فشيد مصطبة كبيرة من الحجر الجيرى الذى قطعه من المحاجر القريبة ثم كسا جدرانه الخارجية بأحجار جيرية من النوع الأبيض الممتاز الذى كانوا يحصلون عليه من محاجر طرة فى الناحية الشرقية من النيل .

كانت تلك المصطبة دون شك أفخم وأعظم من أى قبر ملكى آخر فى المنطقة ، وقطع تحت تلك المصطبة ممرات وحجرات جانبية تتوسطها حجرة كبيرة استخدم فى تشييدها أحجار الجرانيت لتكون حجرة دفن الملك .

ولم يقنع إيمحوتب بذلك ، فعدل فى تصميمه الأول وفكر فى شىء جديد . إن سيده زوسر إله معبود من شعبه فيجب أن يمتاز قبره عن غيره ، ويجب أن يرتفع ويعلو ، ولهذا أخذ يبنى مصطبة فوق أخرى ، وكل منها يقل فى الحجم عما تحتها

حتى أصبح الشكل النهائى لقبر زوسر هرما مدرجا ذا ست درجات ، كانت كلها مكسوة من الخارج بالحجر الجيرى الأبيض ، وبذلك كان إيمحوتب أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر شيد قبرا يشبه الهرم فى شكله العام . ولم يكتف بذلك بل أحاط الهرم بسور كبير مشيد كله من الحجر الجيرى المقطوع من طره ارتفاعه عشرة أمتار وشيد داخل هذا السور مبان عدة كان بعضها لأجل إقامة العيد الثلاثينى والبعض الآخر كان قبرا رمزيا فى الناحية الجنوبية أو معابد تتصل أيضا بالأعياد كما شيد فى الناحية الشمالية من الهرم معبدا قامت فيه تماثيل للملك .

وليس من شأن مثل هذا الكتاب أن يصف تلك المبانى أو يسهب فى الحديث عنها ، ويكفينا أن نذكر أن مجموعة الهرم المدرج تعتبر من أهم ما أبقت عليه الأيام من آثار مصر ، نرى فى مبانيه الخطوات الأولى للمصريين عندما انتقلوا من البناء بالطوب إلى البناء بالحجر . فكثيرا ما نرى المهندس القديم يبذل جهده ليجعل مبانيه شبيهة بمبانى الطوب مثل حجم الأحجار (٥٢ سم فى الطول مثل حجم الطوب فى ذلك العهد ، وهو الذراع المصرى) أو فى تشكيل السقف الحجرى ليكون شبيها بالسقف الذى كانوا يستخدمون فيه فروع الأشجار ، ومثل الأبواب التى تظهر كأنها نصف مفتوحة والأعمدة الحجرية التى تمثل تلك الأعمدة التى كانت تصنع من أعواد النبابات وقد ضمت إلى بعضها .

ويميل أكثر الأثريين إلى قبول الرأى القائل بأن السور الخارجى الكبير الذى رسموا فى جوانبه شكل البوابات الثلاث عشرة فى جهاته الأربع ليس إلا صورة من السور الذى كان حول قصر الملك فى الوادى على مقربة من العاصمة وأن المدخل الرئيسى فى الركن الشرقى الجنوبى (البوابة الرابعة عشرة) شبيه بمدخل القصر الملكى بأعمدته وأماكن حراسه ، وأن تلك المبانى المشيدة بالحجر قد أقيمت بمناسبة الاحتفال بالعيد الثلاثينى للملك زوسر ، إذ أن هذا الملك قد نقل عاصمة الملك بصفة نهائية إلى الشمال . فى تلك المدينة التى أصبحت تسمى منف فيما بعد [١] . ودفن زوسر فى هرمه هذا ، وفى الممرات المحيطة بحجرة الدفن كدسوا آلافاً من الأوانى المصنوعة من المرمر وبعضها من الديوريت أو البرشيا أو الجرانيت أو اليازلت وغير ذلك من الأحجار ، وبعضها صغير والبعض الآخر يزيد ارتفاعه عن متر ، وقد أمكن حتى الآن

استخراج عدد من تلك الأوانى لا يقل عن عشرين ألفا ، وما زال الكثير منها باقيا فى الممرات وقد حطمه إلى أجزاء صغيرة سقوط الصخر فوقه .

عرف زوسر قدر مهندسه فكرمه وأراد أن يخلده معه فسمح بأن يكتب اسمه على تماثيله وهذا تقدير كريم لم نعرف له شبيها؛ لأن الملك كان إلها معبودا من شعبه ، وأراد أن يخلد معه إيمحوتب الذى عرف له مكانه فى دنيا النبوغ . ونعرف من ألقابه أنه كان يتولى وظائف عدة فقد كان مشرفا على الأعمال الإنشائية للملك ، وكان مشرفا أيضاً على إدارة قصره وكان حائزا على لقب رئيس المثالين ، ولكن أهم من ذلك كله فقد كان من ألقابه أنه الرجل الأول بعد الملك أى أنه كان حاكما لأحد الأقاليم وكان كبيرا لكهنة الشمس فى مدينة إيون « هليو – بوليس » . وربما تولى فيما بعد (أي بعد عمل تلك التماثيل) وظيفة الوزير لأنها أصبحت لقبه الرئيسى فى العصور التالية [1] .

وقد ذكر المؤرخ المصرى مانيتون أ زوسر حكم تسعة وعشرين عاما ولكن بعض المصادر الأخرى تكتفى بتسعة عشر عاما فقط . أضاف على ذلك قوله « عاش فى أيام حكمه (أى إيمحوتب) الذى يعتقد الإغريق أنه اسكليبوس (إله الطب) وذلك لمهارته فى الطب . وقد اكتشف هذا الشخص فن البناء والأحجار المنحوتة وكان يقبل إقبالاً كبيراً وبحماس شديد على التأليف .

كان إيمحوتب واحدا من أولئك النوابغ الذين تظهر عبقريتهم فى أكثر من ميدان واحد فلم يقتصر نبوغه على فن العمارة والنحت فأحدث التطور الأكبر فى الفن المصرى بل نبغ أيضاً فى الطب وألف فيه ، كما ألف فى الحكمة . وألهه المصريون بعد وفاته وعبدوه وشيدوا له المعابد فى أواخر أيام حضارتهم وبخاصة فى العصر الفارسى أى فى القرن السادس قبل الميلاد وفى أيام البطالمة بعد ذلك) ، وأطلقوا عليه « ابن الإله بتاح » [2] . ومن المحتمل أن يكون المصريون قد ألهوا إيمحوتب فى عصر

مبكر [1] ولكنهم لم يشيدوا له المعابد الكثيرة فى جميع أرجاء البلاد إلا فى العصر المتأخر عندما رأى المصريون أن حضارات أخرى مثل حضارات الإغريق والفرس أخذت تغزو البلاد وتبهر أنظهار بعض أبنائها فكان ردهم على ذلك شدة استمساكهم بحضارتهم القديمة التى كانت أصل المدنيات جميعا ، وأنهم كانوا المعلمين الأول للبشرية .

كان المتبع فى مصر حتى ذلك العهد ، وبعد ذلك العهد أيضاً حتى الأسرة الخامسة ، أن جميع الوظائف الكبرى لا يتولى أمورها فى أكثر الحالات إلا أفراد من البيت المالك وبخاصة أولاد الملك نفسه ، فهل كان إيمحوتب ممن لهم صلة بذلك البيت حتى وصل إلى ما وصل إليه ، وما الذى جعل الملك يكتب اسمه على تمثاله وهو تكريم لم ينله أحد من أفراد الشعب قبله أو بعده فى وقت سطوة ملوك الدولة القديمة ؟ لم يكن إيمحوتب إلا فرداً من أبناء الشعب وكان مولده على الأرجح فى بلدة الجبلين بين الأقصر وإسنا فى مديرية قنا ، أما أبوه فكان مثل ابنه مشرفاً على الأعمال ويسمى « كانفر » [2] وإنما الذى أوصله إلى ذلك المركز العظيم مواهبه وحسن استعداده .

لقد أطلت فى حديثى عن « إيمحوتب » حتى كدنا ننسى الملك « زوسر » ، ولكن الرجل يستحق أكثر من ذلك فقد كان المحرك للنهضة التى شملت مصر كلها . ولكن مهما قلنا عن نبوغه وعبقريته ، فيجب ألا ننسى أنه لولا أنه وجد من يقدره ويشد أزره ويدفع به إلى الأمام لضاع ذلك النبوغ سدى ، إذ كثيراً ما ييأس النابغون عندما يهملهم الناس أو يحاربونهم أو ينسبون إليهم الجنون . فلو لم يكن زوسر عظيما واسع التفكير لما تمكن إيمحوتب من تحقيق كل ما حققه .

وحكم زوسر أعواما طويلة رأت فيها انبلاد نهضة عامة ، ولم تقتصر آثاره على سقارة فقط بل شيد معابد أخرى عثر على بقايا من واحد منها كان على مقربة من هربيط فى مديرية الشرقية ، كما نعرف أنه أرسل حملة لتأديب بعض بدو شبه جزيرة

سينا الذين كانوا يتعرضون للحملات التى كان يرسلها ملوك مصر لإحضار النحاس من المناجم التى على مقربة من جبل المغارة هناك :

خلفاء زوسر :

كانت فترة حكم زوسر لمصر فترة زاهرة ولكن منذ وفاته حتى آخر أيام الأسرة لم يخلفه على العرش من نستطيع أن نقارنه به .

ويذكر مانيتون أسماء ثمانية ملوك حكموا فى هذه الأسرة بينما لا نجد فى ثبت أبيدوس إلا أسماء ستة ملوك فقط ، أما بردية تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء .

وجاء بعد زوسر ابنه وكان اسمه ينطق حتى عهد قريب « سمرخت » ولكن بعد اكتشاف هرمه المدرج فى سقارة فى صيف عام ١٩٥٤ صار نطقه « سخم خت » أكثر احتمالا ويسمى أحياناً زوسر الثانى .

أراد « سخم خت » أن يشيد بناء شبيهاً ببناء أبيه فاختار له مكاناً قريباً منه ، ولكنه مات دون أن يتمه ، وبدلا من أن نرى تقدماً فى العمارة عما بدأه إيمحوتب نرى أنهم كانوا يقلدون ماشيده تقليداً أعمى، ونرى أيضاً من الشواهد ما يدل على أن خزانة الملك لم تعد تحتمل الإنفاق الكثير . لم يتم ذلك الملك هرمه لا فى تشييد المصاطب التى فوق بعضها ولا فى داخل الهرم ، كما عثر على تابوته فارغاً عند الكشف عنه ، ولكن مهما كانت نتيجة لحفائر حتى الآن فإن هذا الهرم أضاف إلى معلوماتنا شيئاً غير قليل عن طريق تشييد الهرم ، وتأكد لدينا الآن كيف كان المصريون منذ ذلك العهد البعيد يشيدون أهرامهم بواسطة عمل طريق صاعد طويل يجرون فوقه الأحجار اللازمة للبناء وأن ذلك الطريق الصاعد كان يطول ويرتفع كلما تقدم البناء ، فإذا ما تم كل شى أزالوه من مكانه .

وبالرغم من أنه لم يعثر على جثة مشيدة فى التابوت فإن الأمل مازال باقياً فى العثور عليه فى المستقبل ، ومع ذلك فقد عثر على عدد كبير من الأوانى الحجرية بعضها قد تم صنعه وأكثره لم يتم ، كما عثر أيضاً على بعض الحلى الذهبية القليلة التى ربما كانت من الأسرة الثالثة (١) .

لم يحكم « سخم خت » إلا سنوات قليلة ، وربما كان أهم أثر معروف له قبل العثور على هرمه فى سقارة هو ذلك النقش الذى تركه فى وادى المغارة على مقربة من نقش أبيه زوسر والذى كان يعتقد بعض الأثريين خطأ أن صاحبه هو الملك «سمرخت» من ملوك الأسرة الأولى .

ونعرف من أسماء الملوك الذين حكموا فى الإسرة الثالثة اسم حورس « سانخت » وحورس « خع با » واسم الملك « نب كاوو » أو « نب كاوو رع » وثانيهما مشيد الهرم المعروف باسم الهرم ذى الطبقات فى منطقة زاوية العريان بين أهرام الجيزة وأبو صير ، أما ثالثهما فقد أراد أن يشيد هرما على مقربة من هرم من سبقه أى فى منطقة زاوية العريان أيضاً ولكن العمل لم يتقدم أكثر من الإنتهاء من الجزء الأسفل المحفور فى الصخر تحت الأرض ، وفيه التابوت المنحوت من الجرانيت .

وآخر ملوك تلك الأسرة هو الملك « حونى » (وينطقه بعض الأثريين « حو » فقط) الذى حكم أربعة وعشرين عاماً وقد تكرر ذكر اسمه فى أثبات أسماء الملوك ونعرف من إحدى البرديات التى كتبت فى الدولة الوسطى أنه جاء إلى العرش بعد الملك « نب كاوو » وأن الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة قد تولى الحكم بعده .

وربما كان الملك « حونى » هو الذى بدأ هرم ميدوم ، ولكنه مات دون أن يتمه فأتمه الملك سنفرو بعد ذلك ، وربما كان ذلك أيضاً هو السبب فى صلة اسم سنفرو بذلك الهرم ، والذى جعل كثيراً من المصريين القدماء فى أيام الدولة الحديثة ينسبون هذا الهرم إليه فى كتاباتهم التى دونوها على أحجاره عندما كانوا يأتون لزيارته .

ومن الشخصيات المهمة التى عاشت فى أيام الأسرة الثالثة وأمتد به العمر إلى أوائل أيام الأسرة الرابعة أحد كبار الموظفين ويسمى « متن » ومن نقوش مقبرته التى نقلت بأكملها إلى متحف برلين نعرف الشىء الكثير عن التنظيم الإدارى للبلاد فى ذلك العهد ، والوظائف التى تدرج فيها والأقاليم المختلفة التى كان يشرف على إدارتها.

الأسـرة الرابعـــة

(٢٦٨٠ – ٢٥٦٠ قبل الميلاد)

كانت مدة حكم الأسرة الثالثة مائة سنة على الأرجح ، وقد بدأت بعهد زاهر وهو عـهد زوسر ولكن سرعان ما توقفت تلك النهضة ولم تتابع تقدمها على الصورة التى كنا نتوقعها . فقد رأينا كيف عرفت مصر تشييد الهرم المدرج ، ومضت عليها عشرات السنين بعد ذلك فلم تخط الخطوة التالية وهى معرفة بناء الهرم الكامل .

ظلت مصر نحو أربعمائة سنة وهى تبنى مقابر ملوكها فى الأسرتين الأولى والثانية على شكل مصاطب مستطيلة الشكل حتى ولد معمارى نابغ وهو إيمحوتب فارتفع بقبر الملك وجعل منه هرما مدرجا . وظل تجديد إيمحوتب مثلا أعلى مدة تقرب من قرن كامل حتى انتهت أيام الأسرة الثالثة وبدأت الأسرة الرابعة .

وليس فى استطاعتنا حتى الآن معرفـة العـوامل أو الظروف التى أدت إلى ظروف الأسرة الرابعة ، كما تعوزنا أيضاً المعلومات الضرورية لتجديد صلة مؤسس الأسرة الرابعة آخر ملوك الأسرة الثالثة بالرغم من أننا متأكدون أنها لم تكن صلة عداء بل ربما كانت صلة مودة وقربى لاعتناء سنفرو بإتمام هرمه ومعبده فى ميدوم . وكمـا رأينا تلك الوثبة الكبيرة فى جميع النواحى الحضارية عند ظهور الأســرة الثالثة ، فإننا نرى أيضاً وثبة أخرى عند ظهور الأسرة الرابعة ، ولنتحدث الآن عن مؤسسها .

سنفرو : (٢٦٨٠ – ٢٦٥٦ ق.م.)

تزوج سنفرو من الأميرة ، حتب حرس ، (ومن المحتمل جداً أنها ابنة حونى) وهى الأميرة التى كانت تحمل فى دمها حق وراثة العرش ، وبذلك أصبح مركزه شرعياً فى البلاد . ونحن نعرف أن أمه كانت تسمى ، مرس عنخ ، وأنها كانت مدفونة فى ميدوم ولكنا لا نعرف على وجه التأكيد صلته بحونى آخر ملوك تلك الأسرة ، ولو أن بعض الباحثين فى التاريخ المصرى يريدون أن يروا بينهما إحدى صلات القربى (١) .

ومن دراسة حجر بالرمو نعرف الكثير عن نشاط هذا الملك ونعرف العدد الكبير

من القصور والمعابد التى أقامها فى البلاد ، كما نعرف أيضاً أنه أرسل أسطولا بحرياً مكوناً من أربعين سفينة لإحضار كتل من أخشاب شجر الأرز من جبال لبنان ، قد بقى حتى الآن كثير من تلك الأخشاب داخل هرمه القبلى فى دهشور (انظر شكل رقم ٦) ، ومازالت تلك الأخشاب فى حالة جيدة حتى الآن ، ومازالت تؤدى المهمة التى أقيمت من أجلها مثل تثبيت بعض الأحجار أو سندها فى أماكنها رغم مضى أكثر من أربعة آلاف وستمائة سنة .

ويشتهر سنفرو أيضاً بحملته التى أرسلها إلى بلاد النوبة فى الجنوب ليعيد الأمن والطمأنينة إلى حدود مصر الجنوبية ، وقد عاد جيشه بسبعة آلاف من الأسرى ومائتى ألف رأس من الثيران والأغنام .

ولم يقف نشاطه عند ذلك الحد بل نراه أيضاً يرسل حملات التعدين إلى شبه جزيرة سينا وقد خلف رجاله ذكرى تلك الحملات على صخور جبل المغارة على مقربة من مناجم النحاس والفيروز فى تلك المنطقة. وبالرغم من أن سنفرو لم يكن أول ملك استغل مناجـــم سينا أو أرسل حملات لتأديب الخارجين على القانون من البدو ، فإن الأجيال التالية اعتبرته إلها حامياً للمنطقة إلى جانب المعبودين «حتحور» والإله «سوپد» ؛ لأن أعماله فى تأمين حدود مصر الشرقية وما قام به من تحصينات هناك أصبح المثل الذى يحتذى به . وفى أحد النصوص التى كتبت هناك بعد وفاته بما يقرب من ألف سنة يفتخر أحد الملوك بأعماله هناك ويؤكد لنا بأنه لم يقم أحد بمثل ما قام به منذ أيام سنفرو .

وسرعان ما أنت سياسته فى التوسع التجارى مع الشاطىء السورى والنوبة واستغلال المعادن مع تنظيم الأمور الداخلية فى البلاد بأحسن النتائج وبدأت فى مصر نهضة عامة كان أوضحها أثراً ذلك التقدم الذى نراه ظاهرا فى الحياة الاجتماعية للشعب بوجه عام وفى الفنون بوجه خاص ومن بينها فن العمارة .

هرما سنفرو فى دهشور :

شيد هذا الملك قبره الملكى على مقربة من العاصمة ، وأراد المشرفون على بناء ذلك القبر أن يجعلوه هرما كاملا ، وأن يكون أعظم من أى أثر آخر بنى فى مصر قبل أيامه سواء فى حجم الجزء الظاهر للناس أو فى ممراته الداخلية وردهاته .

وبدأوا بناء الجزء الأسفل من الهرم ، وأتموا تشييد جميع ممراته الداخلية ، وجعلوا له مدخلا فى منتصف الواجهة الشمالية كغيره من الأهرام المدرجة التى بنيت قبله ، ويؤدى هذا المدخل إلى دهليز طويل ينحدر إلى أسفل ثم ينتهى بدهليز آخر ثم

حجرة للدفن . وقد تم الكشف فى عام ١٩٥١ أثناء أبحاثى داخل هذا الهرم عن مدخل آخر فى الناحية الغربية وبذلك يتميز هذا الهرم بأنه وحده من بين أهرام مصر جميعاً له مدخلان فى واجهتين مختلفتين له . وارتفع بناء الهرم بزاوية تزيد قليلا عن أربعة وخمسين درجة حتى وصل ارتفاع البناء إلى ٤٨,٠٧ متراً ، وعند ذلك تغير التصميم الأصلى فنراهم يغيرون زاوية البناء إلى ثلاث وأربعين درجة وواحد وعشرين دقيقة فقط ، فلما تم البناء أصبح شكله غير منتظم لتغيير الزاوية وكأنه هرم كامل فوق هرم ناقص ، إرتفاعه الكلى ١٠١,١٥ متراً أما طول ضلع قاعدته المربعة فهو ١٨٨,٦٠ متراً .

وإذا أردنا البحث عن تفسير عملى معقول لتغيير زاوية بناء هذا الهرم لما وجدنا إلا تفسيراً واحداً ، وهو أن زاوية ٥٤ درجة كانت كبيرة جداً وقدر المهندسون المعماريون ان ارتفاع الهرم سيكون كبيراً وربما سبب ذلك ما يؤثر على سلامة البناء ، خصوصاً وأنه قد بدأت تظهر بعض تشققات عالجوها بملئها بالجبس . كانت هذه المحاولة أولى تجارب المصريين فى بناء الهرم الحقيقى كما نعرفه ، وكان هرم دهشور القبلى ، المدرسة التى درسوا فيها هندسة تشييد هرم آخر لسنفرو على بعد يقل من كيلو مترين إلى الشمال منه ، وجعلوا زاوية ميله مماثلة تقريباً لزاوية ميل الجزء العلوى من الهرم القبلى أى ثلاثة وأربعين درجة ثانية . وأدخلوا أيضاً تحسيناً آخر إذ اقتصروا على المدخل الذى فى الناحية الشمالية فقط ، وبدلا من أن يؤدى إلى حجرة واحدة نراه يؤدى إلى حجرات ثلاث واحدة بعد الأخرى . وارتفاع الهرم البحرى وهو أول هرم حقيقى فى تاريخ العمارة المصرية ٩٩ متراً وطول كل ضلع من قاعدته المربعة ٢٢٠ متراً أى لا يقل إلا نحو عشرة أمتار عن ضلع هرم الجيزة الأكبر .

وهنا يجدر بنا أن نقف لنتساءل فى أى الهرمين دفن الملك سنفرو وأصبح المقر الأبدى لجثمانه ؟ . ولست أريد هنا الدخول فى مناقشة تفصيلية ولكنى أعتقد أنه دفن فى الهرم القبلى إذ نراهم قد أتموا جميع الأجزاء المتممة له ، فبنوا فى الناحية الجنوبية منه ذلك الهرم الصغير الذى أراد أن يسميه بعض الأثريين هرم الروح أو هرم الطقوس، ولكنا لا نعرف تماماً ماذا كانت وظيفته ولسنا متأكدين من شىء يختص به إلا من أنه لم يستخدم للدفن بل ربما كان مقاماً للقيام بشعائر خاصة متصلة بتقديم القرابين . وأقاموا حول الهرم سوراً كبيراً من الحجر وبنوا فى الناحية الشرقية منه معبداً جنازياً صغيراً شبيهاً بمعبد هرم ميدوم ، كما بنوا طريقاً يوصل من الناحية الشمالية من السور إلى الوادى وانحرفوا به نحو الشرق حيث شيدوا هناك معبداً كبيراً على مسافة تزيد على سبعمائة متر من الهرم غطوا جزءاً كبيراً من جدرانه بنقوش

تمثل الملك سنفرو وهو يقوم ببعض الطقوس الدينية المعروفة وأهمها مناظر من العيد الثلاثيني ، ومناظر تمثل زيارته للهياكل في عاصمتي الشمال والجنوب (بوتو ونخن) ، كما نرى فيه أيضاً مناظر تمثل أقاليم مصر وأهم بلادها في ذلك الوقت التي كان يمتلك فيها سنفرو ضيعة من ضياعه ورمزوا لكل منها بسيدة تحمل القرابين وكتبوا أمامها إسم البلد أو الإقليم مرتبة ترتيباً طوبوغرافياً من الجنوب للشمال مما ساعد على تحديد أمكنتها الحالية . وظهرت في حفائر ذلك المعبد بين أعوام ١٩٥١ ، ١٩٥٣ بعض تماثيل مهشمة للملك سنفرو وعدد كبير من تماثيل كهنة المعبد في أيام الدولتين القديمة والوسطى إذ كان هذا المعبد قائما ولم تمتد إليه يد التخريب إلا في الدولة الحديثة .

وإلى الشرق من الهرم البحري انتشرت مقابر عائلة سنفرو ، ومن بينهم بعض أبنائه وبناته وهي معروفة منذ أكثر من ستين سنة ، كما انتشرت أيضاً مقابر كثيرين من كهنته وموظفيه ، سواء في أيامه أو فيما تلا ذلك من عصور . وما زال عدد كبير من تلك المصاطب والجبانات ينتظر الحفر . ولم نتمكن حتى الآن من حفر المنطقة الواقعة حول الهرم البحري حتى نستطيع القول إن كان له هو الآخر معبد جنازي إلى الشرق منه ومعبد في الوادي أو أن المصريين القدماء اقتصروا على معبدي الهرم القبلي .

على أي حال فهناك حقيقة مهمة وهي أن النصوص القديمة تذكر دائماً هرمي سنفرو (١) ، وتذكر المدينة التي كانت مركزاً لإدارة ممتلكات هذين الهرمين ، كما نعرف أيضاً أن المصريين في الأسرة الثانية عشرة الهوا سنفروا فأصبح واحداً من الآلهة يذكرونه ويقدمون له القرابين جنباً إلى جنب مع الآلهة الأخرى مثل أوزيريس ورع وسوكر وبتاح وغيرهم .

وقبل أن أعود إلى الحديث عن سنفرو أحب أن أذكر شيئاً قليلا عما بلغه الفن في أيامه ، إذ يكفي أن يلقي الإنسان نظرة على نقوش معبده أو على نقوش المقابر التي شيدت في عصره سواء في منطقة دهشور أو في ميدوم ليدرك مدى ما بلغه فن النحت سواء في النقوش البارزة أو في الرسم بالألوان ، إذ وصل الفنان المصري في عهد سنفرو إلى حد لم يستطع أن يتفوق عليه في العصور التالية إلا في حالات قليلة.

الملكة حتپ حرس :

ويقف زائر المتحف المصرى مذهولاً أمام بعض آثار ميدوم مثل تمثال نفرت (انظر شكل رقم ٧) وزوجها رع حوتپ الذى كان أحد أبناء سنفرو ، أو أمام بعض رسوم مقبرة نفر ماعت وخاصة رسم أور ميدوم ، ولكن إعجابه يتضاعف عندما يقف فى القاعة التى صفت فيها محتويات مقبرة الملكة حتپ حرس زوجة سنفرو فى المتحف المصرى ، ويرى فى تلك القاعة حليها وسريرها المصفح بالذهب وكرسيها الكبير وخيمتها المتنقلة ذات الأعمدة المصنحة بالذهب ، ويرى محفتها كما يرى أيضاً بعض أدوات زينتها المصنوعة من الذهب أو النحاس . يقف الزائر حائراً موزع الإحساس ، لا يدرى بأيهما يعجب أكثر من الآخر هل يعجب بما وصل إليه المصريون القدماء من حضارة ورفاهيه فى حياتهم الشخصية قبل ٤٦٠٠ عام ، أم يعجب بالصانع المصرى وتفوقه فى ذلك العهد البعيد .

ولمحتويات مقبرة « حتپ حرس » قصة لا تخلو من الطرافة . ففى عام ١٩٢٦ عثرت بعثة هارفارد – بوسطون الأمريكية على فوهة بئر أثناء حفائرها شرقى الهرم الأكبر فى الجيزة ولم يكن لهذا البئر أى هيكل مشيد فوقه ، وكان مملوءاً بالأحجار المرصوصة . فلما وصل المكتشفون إلى نهايته وجدوا مدخل الحجرة الجانبى مسدوداً بالأحجار المبنية وخلفه كدست محتويات المقبرة فوق بعضها ، وكان فيها تابوت من المرمر وضع غطاؤه فوق صندوقه .

كان اسم الملكة حتپ حرس واسم زوجها سنفرو مكتوباً على الأثاث ولهذا توقع المكتشفون أن يكون جثمانها داخل التابوت ، فلما رفعوا غطاءه لم يجدوا فيه شيئاً . كان داخل الحجرة يدل على أن وضع محتويات القبر تم فى سرعة ودون ترتيب ، بل أن بعض الأشياء كان يرمى رمياً فوق البعض الآخر ، وها هو التابوت خال من الجثة ، وزيادة على ذلك فأين هيكل المقبرة العلوى إن كان هذا المكان قد أعد ليكون المثوى الأبدى لزوجة سنفرو وأم خوفو ؟ ولم يعد هناك شك فى أن سراً قديماً يختفى وراء ذلك ، وتقدم « ريزنر » رئيس تلك البعثة بتفسير مقبول .

كانت حتپ حرس مدفونة فى دهشور على مقربة من هرم زوجها بالرغم من أنها عاشت إلى أيام ابنها خوفو الذى اختار منطقة الجيزة لتكون جبانة ملكية له ، فقلت العناية بمنطقة دهشور . وبعد دفنها بقليل تمكن بعض اللصوص من الوصول إلى المقبرة وأخذوا ما استطاعوا أخذه من الحلى إن كان هناك شىء آخر غير ما عثر عليه المكتشفون فى أحد الصناديق . وحملوا معهم جثة الملكة بما عليها من حلى أخرى كما

جرت العادة . فلما اكتشف الحراس حقيقة ما حدث رأى المسئولون ألا يتركوا القبر فى مكانه بعد ذلك ونقلوا كل شىء إلى الجيزة وقطعوا إلى جانب طريق المعبد الجنازى الذى كانوا يعملون فيه إذ ذاك ذلك البئر العميق وكدسوا فيه ما بقى من محتويات المقبرة .

ويعتقد مكتشفو المقبرة أن نقل التابوت ووضع غطائه فوقه دليل على أنهم أخفوا على « خوفو » حقيقة ما حدث من أخذ اللصوص لجثتها (١) . ولم يعثر حتى الآن فى دهشور أو فى ميدوم أو فى الجيزة على أى قبر أو بقايا من قبر يمكن أن تنسبه إلى هذه الملكة حتى نقول ونحن واثقون إنها كانت مدفونة فيه .

ذكرى سنفرو :

لم يكن سنفرو ملكا عظيما محباً للبناء فحسب ، بل كان شخصاً محبوباً ممن حوله ، عادلاً بين رعيته ، وقد رأينا كيف آلهه المصريون بعد وفاته بأكثر من ستمائة عام ، ونعرف أيضاً أن بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة اختاروا منطقة دهشور بالذات ليشيدوا فيها أهرامهم ليكونوا على مقربة منه ، تيمناً بقداسة المنطقة .

ولكن الأمر الذى يستلفت النظر هو ما كانت تكتبه الأجيال التالية عنه ، إذ قلما كان يرد إسمه فى أحد النصوص إلا وكانوا يشفعونه بعض الأوصاف التى لم يكن يستخدمونها عند الإشارة إلى أى ملك أخر من ملوك الدولة القديمة مثل قولهم عنـــه « الرحيم ، الملك المحسن المحبوب » .

ونقرأ عنه فى بردية وستكار التى كتبت بعدما يقرب من سبعمائة سنة بعد وفاته قصة حرص فيها كاتبها على إظهار وداعة أخلاقه وحلمه وعطفه على من حوله ، واستخدامه أرق الألفاظ عند الحديث معهم (٢) .

وحكم سنفرو أربعة وعشرين عاما ، وكان أبناؤه يتولون جميع المناصب الهامة في البلاد ، سواء في العاصمة أو في الأقاليم ، فلما جاء اليوم الذى ترك فيه أمور مصر إلى إبنه خوفو ، ترك له عرشا ثابت الأركان ، وبلداً غنياً منظم الإدارة وترك له أيضا موظفين مدربين ، وفنانين اكتملت خبرتهم .

خوفو : (٢٦٥٦ - ٢٦٣٣ ق.م.)

لم يعد لدينا الآن أى شك فى أن خوفو كان أحد أبناء سنفرو من زوجته الأولى الملكة ، حتب حرس ، وبالرغم من ذلك فما زال بعض المشتغلين بالتاريخ يرددون ما كتبه برستد منذ أكثر من خمسين سنة عن اعتقاده بأن خوفو كان زعيماً من إقليم المنيا استناداً إلى وجود بلد باسم ، مدعت خوفو ، أى مربية خوفو ، ولكن الحقيقة الثابتة الآن فى ضوء ما جد لدينا من معلومات أن ، مدعت خوفو ، ليست إلا إحدى الضياع التى ورثها عن أبيه وكانت تسمى ، مدعت سنفرو ، فغير إسمها إلى ، مدعت خوفو ، (١) أما عن اسمه فقد فضلت اتباع النطق القديم بالرغم من أن نطقه الأصح هو ، خوفو وى ، وهو اختصار لاسمه الكامل ، خنوم خوفو وى ، وذلك لاعتياد قراء العربية عليه منذ أجيال كثيرة .

تولى خوفو عرش مصر وجنى ثمار إصلاحات أبيه ، وإذا ألقينا نظرة عن أعماله المختلفة لأدركنا أن السياسة الإنشائية التى وضع سنفرو أساسها قد استمرت ، فقد عثر على اسمه فى كثير من بلاد مصر سواء فى الدلتا أو فى الصعيد ، كما أرسل أيضا حملات إلى جبل المغارة لإحضار الفيروز وربما النحاس من هناك .

وكانت تجارة مصر الخارجية ، وبخاصة مع الشاطىء الفينيقى مزدهرة ، ومن المرجح جداً أنه كانت تقيم فى مدينة جبيل (إلى الشمال من بيروت الحالية) جالية مصر للتجارة منذ أيام الأسرة الثانية ، واهتم سنفرو بتشييد سفنه من أخشاب الـ ،مرو، ومن خشب الأرز ، واستخدمه فى مبانيه ولكن منذ عهد خوفو على الأقل قام فى وسط ، جبيل ، معبد مصرى أضاف إليه من جاء بعهد ، حيث عثر على أحجار منه تحمل اسمه وأسماءهم .

ولكن هذه الأعمال المختلفة لم تكن هى السبب فى تخليد اسمه فى التاريخ على مدى الأجيال بل كان السبب فى ذلك هرمه الذى شيده على هضبة الجيزة ، وهو المعروف باسم الهرم الأكبر ، والذى ما زال شامخاً سليم البنيان يتحدى الزمن ويغالبه ،

يتنزع إعجابنا اليوم كما انتزع إعجاب الشعوب القديمة جميعا . ويعترف الناس اليوم كما اعترفوا بالأمس بأنه ليس واحداً من عجائب الدنيا السبع وحسب بل هو عجيبة العجائب؛ لأنها زالت وبقى وحده على مر الأجيال (١) .

هرم الجيزة الأكبر :

قضى مهندسو « سنفرو» ما يقرب من ربع قرن فى تشييد أهرامه ومقابر أسرته وكبار موظفيه ، استكملوا خلالها خبرتهم العظيمة فى تشييد الأهرام . فلما جاء اليوم الذى بدأوا فيه فى تشييد هرم ابنه « خوفو » أرادوا أن يجعلوه أعظم من أهرام أبيه ليس فى الحجم فقط بل وفى التصميم ، والنسبة بين أجزائه ، وفى الإتقان الكامل لفن البناء.

وإذا أردنا وصف الهرم لطال بنا الأمر ، ويكفى أن نذكر أنه يشغل مساحة لا تقل عن ثلاثة عشر فدانا وأنهم قد استخدموا فى بنائه عدداً لا يقل عن ٢,٣٠٠,٠٠٠ كتلة من الحجر قطعوها من محاجر فى الهضبة نفسها ، ويزيد وزن بعضها عن ثمانية أطنان ويقل وزن البعض الآخر (الجزء الأعلى من الهرم) عن طن واحد . وقد حسب أحد الرياضيين أنه لو تيسر تقطيع الكتلة الكاملة للهرم الأكبر إلى أحجار صغيرة كل منها قدم مكعب واحد ووضعنا هذه الأحجار إلى جانب بعضها لأصبح طول ذلك الخط ثلثى محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء ، كما قدر البعض الآخر أنه لو استخدمت أحجار الهرم فى عمل سور حول فرنسا ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه متر واحد لكفت .

وارتفاع الهرم ١٤٦ متراً وطول ضلع قاعدته ٢٣٠ متراً ولكن هذا كله يتضاءل أمام إعجابنا بدقة المصريين فى ذلك العهد البعيد وتفوقهم فى فن البناء ووصولها إلى حد الإعجاز فى ضبط الزوايا والأبعاد . وسيزداد الزائر إعجاباً إذا زار داخله واتخذ طريقه فى تلك الطرقات القليلة الارتفاع ثم وجد نفسه فى تلك الردهة المرتفعة ووقف أخيراً يتطلع إلى تابوت الملك خوفو فى حجرة الدفن .

وعندما بدأ مهندسو خوفو فى تشييد هذا الهرم لم يكن التصميم الأصلى هو البناء الحالى الذى نراه أمامنا بل كان يقل عنه . ولم تكن حجرة دفنه فى داخل البناء بل كانت مقطوعة فى الصخر ويؤدى إليها ممر منحدر فى جوف الأرض وأثناء العمل غيروا التصميم وزادوا من البناء وأصبحت حجرة الدفن فى داخل البناء نفسه ، وهى المعروفة الآن خطأ باسم حجرة الملكة ، وللمرة الثانية غيروا التصميم وقام المهندسون بعمل الردهة الكبرى الصاعدة التى توصل إلى حجرة الدفن .

وكان الهرم بأكمله مكسواً من الخارج بكساء من الحجر الجيرى الأبيض الذى قطعوه من محاجر طرة فى الشاطىء الشرقى للنيل ، وكان له معبد جنازى كبير فى الناحية الشرقية منه ما زالت بقاياه موجودة ، وعلى الأخص أرضيته من حجر الدلوريت الأسود المقطوعة من محاجر فى شمال بحيرة قارون بالفيوم .

وكانت بعض جدران هذا المعبد منقوشة وقد عثر على بعضها فى حفائر مصلحة الآثار عام ١٩٣٨ ، وفى الناحية الشرقية من المعبد بنوا جسراً ضخما نزل من حافة الهضبة إلى الوادى ، واستخدموا هذا الجسر ليكون الطريق الموصل إلى معبد الوادى الذى لم يكتشف مكانه حتى الآن ، وإن كان من المؤكد أنه تحت منازل بلدة نزلة السمان الحالية .

وكان هناك هرم صغير فى الناحية الجنوبية من هرم خوفو هدم وزالت أحجاره منذ عهد بعيد ، كما قطعوا فى الصخر أماكن كبيرة الحجم كانوا يضعون فيها سفنا كبيرة من الخشب لتكون تحت تصرف الملك عندما يقوم برحلتى النهار والليل مع إله الشمس رع وفى مختلف الأغراض عند عبور الأنهار والبحيرات فى العالم الآخر . وقد كشفت الحفائر منذ وقت بعيد عن ثلاثة من تلك الأماكن المعدة للمراكب فى الناحية الشرقية من الهرم ، كما عثر فى صيف عام ١٩٥٤ على أماكن اثنتين أخريين فى الناحية الجنوبية ، وقد رفعت الأحجار الضخمة التى سقفوا بها مكان واحد منها فكشفت عن أجزاء مركب كبير من خشب الأرز فى حالة جيدة ومعه جميع معداته من مجاديف وحبال ومقصورة للجلوس . ونعرف الآن أن طول هذا المركب ثلاثة وأربعون متراً ونصف وأن ارتفاع مقدمتها خمسة أمتار وارتفاع مؤخرتها سبعة أمتار . وليس هذا المركب أكبر ما كان يصنعه المصريون القدماء بل كان هناك ما هو أكبر منها طولا إذ ورد فى حجر بالرمو من عهد سنفرو نفسه ذكر بناء كثير من السفن التى كان طول كل منها مائة ذراع مصرى أى أكثر من اثنين وخمسين متراً .

لم تكن فكرة وجود مراكب على مقربة من الأهرام جديدة على الأثريين فقد

وعندما بدأ مهندسو خوفو فى تشييد هذا الهرم لم يكن التصميم الأصلى هو البناء الحالى الذى نراه أمامنا بل كان يقل عنه . ولم تكن حجرة دفنه فى داخل البناء بل كانت مقطوعة فى الصخر ويؤدى إليها ممر منحدر فى جوف الأرض وأثناء العمل غيروا التصميم وزادوا من البناء وأصبحت حجرة الدفن فى داخل البناء نفسه ، وهى المعروفة الآن خطأ باسم حجرة الملكة ، وللمرة الثانية غيروا التصميم وقام المهندسون بعمل الردهة الكبرى الصاعدة التى توصل إلى حجرة الدفن .

وكان الهرم بأكمله مكسواً من الخارج بكساء من الحجر الجيرى الأبيض الذى قطعوه من محاجر طرة فى الشاطىء الشرقى للنيل ، وكان له معبد جنازى كبير فى الناحية الشرقية منه ما زالت بقاياه موجودة ، وعلى الأخص أرضيته من حجر الدلوريت الأسود المقطوعة من محاجر فى شمال بحيرة قارون بالفيوم .

وكانت بعض جدران هذا المعبد منقوشة وقد عثر على بعضها فى حفائر مصلحة الآثار عام ١٩٣٨ ، وفى الناحية الشرقية من المعبد بنوا جسراً ضخما نزل من حافة الهضبة إلى الوادى ، واستخدموا هذا الجسر ليكون الطريق الموصل إلى معبد الوادى الذى لم يكتشف مكانه حتى الآن ، وإن كان من المؤكد أنه تحت منازل بلدة نزلة السمان الحالية .

وكان هناك هرم صغير فى الناحية الجنوبية من هرم خوفو هدم وزالت أحجاره منذ عهد بعيد ، كما قطعوا فى الصخر أماكن كبيرة الحجم كانوا يضعون فيها سفنا كبيرة من الخشب لتكون تحت تصرف الملك عندما يقوم برحلتى النهار والليل مع إله الشمس رع وفى مختلف الأغراض عند عبور الأنهار والبحيرات فى العالم الآخر . وقد كشفت الحفائر منذ وقت بعيد عن ثلاثة من تلك الأماكن المعدة للمراكب فى الناحية الشرقية من الهرم ، كما عثر فى صيف عام ١٩٥٤ على أماكن اثنتين أخريين فى الناحية الجنوبية ، وقد رفعت الأحجار الضخمة التى سقفوا بها مكان واحد منها فكشفت عن أجزاء مركب كبير من خشب الأرز فى حالة جيدة ومعه جميع معداته من مجاديف وحبال ومقصورة للجلوس . ونعرف الآن أن طول هذا المركب ثلاثة وأربعون متراً ونصف وأن ارتفاع مقدمتها خمسة أمتار وارتفاع مؤخرتها سبعة أمتار . وليس هذا المركب أكبر ما كان يصنعه المصريون القدماء بل كان هناك ما هو أكبر منها طولا إذ ورد فى حجر پالرمو من عهد سنفرو نفسه ذكر بناء كثير من السفن التى كان طول كل منها مائة ذراع مصرى أى أكثر من اثنين وخمسين متراً .

لم تكن فكرة وجود مراكب على مقربة من الأهرام جديدة على الأثريين فقد

كان معروفا لخوفو ، كما قلنا ثلاثة منها من قبل (إثنتين فى الناحية الشرقية والثالثة إلى جانب الطريق الموصل إلى معبد الوادى) . ونعرف أيضاً أمكنة خمسة على الأقل على مقربة من هرم ابنه خفرع . وقد عثر على بعض مراكب خشبية على مقربة من سنوسرت الثالث فى دهشور إثنتان منها فى المتحف المصرى بالقاهرة وثالثة فى أحد متاحف شيكاجو بالولايات المتحدة الأمريكية ولكنها أقل كثيراً فى الحجم وجودة الصناعة ، كما أن مراكب خوفو ليست أقدم ما نعرفه إذ نعرف وجود هذا النوع من المراكب إلى جوار مقابر الأسرة الأولى فى سقارة وحلوان .

ولكن بالرغم من أن الفكرة لم تكن جديدة على الأثريين فإن الاكتشاف الجديدة ذو أهمية لا يمكن التقليل منها ، ولن يزيد هذا الاكتشاف من معلوماتنا عن صناعة السفن والنجارة فى ذلك العهد البعيد فحسب بل ستزداد معلوماتنا كثيراً من دراسة المواد المختلفة التى عثر عليها فى المكان واستخدموها مع السفينة (١) . وكثيراً ما تذكر هذه السفينة على أنها مركب الشمس أو سفينة الشمس ، ولكن يجب الاحتراس من هذه التسمية ؛ لأنه ليس لدينا على الإطلاق ما يثبت أنها كانت إحدى سفينتى رحلة الشمس بل هناك أكثر من قرينة تدل على عكس ذلك القول وأنها كانت واحدة من السفن السبع أو الثمانى التى وردت فى نصوص الأهرام مقترنة برحلة الملك بعد وفاته فى العالم الآخر ، وذلك لأن مخصص سفن الشمس كان ذا شكل خاص كما كان يحتوى على رموز دينية خاصة مقامة فيها وذلك كله لم يتوفر فى السفينة المكتشفة .

أما عن الوقت الذى استغرقه بناء هذا الهرم فنحن لا نعرف إلا ما ذكره المؤرخ اليونانى هيرودوت وقال بأنه سمعه من الكهنة المصريين وهو أن بناء الأجزاء السفلى والممرات الصاعدة قد استغرق عشر سنوات ، وأن بناء الهرم نفسه استغرق عشرين عاما ، وكان عدد العمال مائة ألف يعملون ثلاثة أشهر فى السنة . وللمؤرخين العذر إذا شكوا فى صحة الرواية ؛ لأن هيرودوت لم يسمعها إلا بعد مضى أكثر من ألفى سنة بعد بناء الهرم ولم يكن محدثوه إلا من صغار الكهنة ، وهم لا يزيدون فى معلوماتهم عن الأدلاء الحاليين الذين نراهم حول الهرم إن لم يقلوا عنهم فى المعرفة . وقد ذكر الكهنة له ما كان يردده الشعب من قصص ، وبعضها لا يمكن أن يصدقه العقل ،

ولكن بالرغم من ذلك فقد درس المهندسون المعماريون هذا الموضوع وهم مقتنعون بأن بناء الهرم يحتاج على الأقل إلى مثل ذلك الوقت . أما الرقم الذى ذكره عن عدد العمال فربما كان صحيحاً وأنهم كانوا يأتون بهم فى وقت الفيضان بينما كان المختصون من عمال المحاجر والنحاتين يعملون طول العام . وذكر لنا هيرودوت أيضاً أن خوفو كان قاسياً على شعبه وأنه كان يسخر الناس دون رحمة ولهذا كرهوه وحقدوا عليه ، وسواء أكان ذلك صحيحاً أو غير صحيح فإننا لم نعثر فيما كشفت عنه الحفائر من نصوص ما يثبت ذلك . وكثيراً ما نقرأ لبعض الكتاب نقدا لاذعا من أعمال السخرة أو الرق فى تشييد الهرم ، وعن الحكام الذين يستنزفون دماء الشعب فى سبيل تحقيق أشياء لا فائدة منها للناس بل كل فائدتها تعود إلى الحاكم نفسه ليتباهى بها . وأراد البعض الآخر أن يدافع عن قدماء المصريين فقال بأن خوفو وغيره من الملوك كانوا يشيدون الأهرام ليساعدوا المتعطلين عن العمل فى شهور الفيضان عندما تصبح الحقول مغطاة بالمياه ، فتقل فرص العمل ويندر وجود القوت للفقير الذى لم يستعد لتلك الأيام ، فكان تشييد الأهرام عملا إنسانياً ؛ لأنه يضمن لهم الطعام والشراب .

وكلا الرأيين بعيد عن الصواب لأننا لا يمكن أن نحكم على الماضى بمنطق العصر الحاضر ، أو بتعاليمه وآرائه . كان الملك فى مصر إلها معبودا من شعبه ، إلها كغيره من الآلهة الذين فى السماء ، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض لكى يحكمها ويسعد الناس بوجوده بينهم . فإذا وضعنا ذلك فى أذهاننا لأدركنا أنه كان يسر الكثير من الناس وبخاصة الذين يعيشون فى القرى النائية بعيدا عن المدن أن تتاح لهم فرصة فى أيام الفيضان ، وأيام الضيق المادى فى الوقت ذاته ، ليزوروا العاصمة التى طالما سمعوا عن عجائبها والطرف بالنظر إلى معابد الآلهة وقصور العظماء ، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شىء لإلههم عسى أن يكون فيه قربى ورحمة لهم ، وكان يسر الفقراء من عامة الشعب أن يضمنوا عدم الحاجة طيلة أيام إقامتهم فى العاصمة .

وربما صعب فهم ذلك على الغربيين الذين طغت على أذهانهم فلسفة المادية ومنطقها ، وربما صعب فهم ذلك أيضاً على بعض أبناء المدن الكبيرة فى الشرق ممن تنقصهم تجارب الحياة ، ولكن ليذهب هذا أو ذاك إلى إحدى القرى الصغيرة فى ريف مصر أو غير مصر ، ويرى الناس وهم يعملون عندما يستقر رأيهم على بناء مسجد صغير أو ضريح لأحد الأولياء ، فيرى أهل القرية جميعا ، بل وبعض جيرانهم من القرى الأخرى وهم يعملون دون أجر ، ويرى القادرين من بينهم يتنافسون فى تقديم

الطعام لغير القادرين من العاملين ، والنساء يعملن طول اليوم فى حمل الماء اللازم للبناء ، بل ويطغى الحماس على أغنياء القرية فيأبون إلا أن يعملوا بأيديهم مع غيرهم راجين المغفرة والثواب . فليذهب إليهم ويرى البشر يعلو وجوههم وهم يعملون طول اليوم تحت وهج الشمس ، وليتحدث بعد ذلك عن السخرة أو غير السخرة .

وقبل أن أترك موضوع هرم خوفو إلى نقطة أخرى أحب أن أشير إلى ما تطلع به علينا بعض الصحف من أن بعض الباحثين استطاعوا أن يتنبأوا بحوادث مقبلة من دراساتهم لمقاييس الردهات والحجرات الداخلية فى الهرم الأكبر ، ولست أدرى لماذا يختصون الهرم الأكبر من بين جميع أهرام مصر فيقولون بأن حكماء المصريين القدماء أو من بنوه هم من بنى إسرائيل كما يقولون – وقد تم تشييد الهرم قبل أن يظهر اسمهم فى التاريخ بقرون طويلة – جعلوه مستودعا لكل تلك الأسرار . ولقد قرأت بعض كتبهم وأكثرها منشور فى انجلتر ، أو فى أمريكا فى المدة الأخيرة ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن جميع تلك الآراء قائمة على فروض خاطئة ومعلومات مغرضة غير صحيحة ، وأن مقاييسهم التى يبنون عليها نظرياتهم مقاييس أكثرها لا صحة له ، ويكفى أن يتذكر القارىء ما سبق أن ذكرته وهو حدوث تعديلات جوهرية فى تصميم الهرم أثناء تشييده . كما أرجو ألا ننسى أنه لم يقصد من الهرم عند بنائه إلا أن يكون قبرا ومنزلا أبديا لصاحبه وكان المفروض فيه أن يظل إلى الأبد مغلقا لا يدخله أحد من الناس .

جبانة الهرم الأكبر :

وسمح خوفو بأن تشيد مقابر المقربين من أهله ورجال بلاطه وكبار موظفيه على مقربة من هرمه ليكونوا حوله فى الحياة الأخرى، كما كانوا حوله فى دنياهم ، وبذلك يضمنون لأنفسهم الحياة الخالدة السعيدة . وخصصوا الناحية الشرقية من الهرم لأفراد عائلته فترى فى أول صف قريب من ضلعه الشرقى ثلاثة أهرام صغيرة لثلاثة من زوجاته ثم نرى مقابر أبنائه وإخوته وغيرهم من عائلته فى صفوف متراصة حتى تصل المقابر إلى حافة الهضبة . وكان بعض إخوته (مثل ، حم إيون ، ، وهو ابن لسنفرو وكان مشرفا على تشييد هرم خوفو فى فترة من فترات تشييده – انظر شكل رقم ٨) وغيره مع عدد كبير من رجال البلاط والموظفين مدفونين فى الناحية الغربية من الهرم فى صفوف بينها طرقات مستقيمة . وقد تم فحص الجزء الأكبر من الجبانتين الشرقية والغربية على يدى أعضاء بعثة هارڤاردو بوسطون وبعثة أكاديمية العلوم فى ڤينا ، وجاءت تلك الحفائر بنتائج علمية كبيرة جلت لنا كثيراً من النقط

الغامضة فى تاريخ وحضارة هذه الفترة المهمة فى التاريخ المصرى . وقد سطا اللصوص على أكثر هذه المقابر فى العصور القديمة والحديثة ولكن بقى رغم ذلك الكثير من الآثار الهامة وبخاصة النقوش والتماثيل وغيرها . وهناك ما يدل على أن الهرم نفسه قد تعرض لما تعرضت له الجبانة كلها ففتح ونهب فى فترة الضعف الذى أصاب مصر فى عصر الفترة الأولى ، أى فى أعقاب الدولة القديمة .

النزاع بين أفراد العائلة المالكة :

ونرى فى كل من الجبانتين وبخاصة الشرقية أثر النزاع المرير بين أبناء خوفو، وبينها مقابر كثيرة لم يتم بناؤها أو لم يتم نقش جدرانها وبينها نقوش محيت أسماء أصحابها وصورهم . ويتلخص النزاع فى أن خوفو تزوج أكثر من زوجة وولد له أبناء من كل منها ، وظهر الصراع بين الأبناء تساندهم أمهاتهم وبعض رجال البلاط لتولى العرش . ومن إحدى مقابر الجبانة الشرقية ، وهى مقبرة الملكة « مر سعنخ الثالثة » نستطيع أن نلم ببعض نواحى تلك المأساة .

نرى مر سعنخ ووالدتها تلبسان فى رسوم هذه المقبرة ملابس تختلف عن ملابس المصريات كما يختلف أيضا لون شعرها إذ هو أشقر فيه شىء من الحمرة وعيونها زرقاء ، ولهذا أراد ريزنر أن يرى فيها دما شماليا أى أنها ربما كانت سليلة أحد البيوت التى استقرت على الشاطىء الإفريقى الشمالى فى ذلك العهد (قبائل التمحو) وكانت قد هاجرت إلى هناك من مواطنها الأصلية فى شمال أوروبا .

وسواء أكان ذلك صحيحاً ، أى أن تلك الملكة كانت من نسل ليبى عن طريق أمها أو لم تكن ، فإنا نعرف أن أمها الأميرة حتب حرس الثانية كانت زوجة لولى العهد الأمير « كا وعب » الذى دبر أخ له يسمى « جدف رع » أمر قتله ليتولى العرش . وكان « جدف رع » ابنا لزوجة ثانوية (ربما كانت من أصل ليبى من الفرع نفسه الذى ولدت فيه حتب حرس الثانية وابنتها) . ونجح فى مؤامرته وتولى العرش واتخذ حتب حرس الثانية زوجة « كا وعب » لتكون إحدى زوجاته .

ولم تلد حتب حرس ولدا للملك الجديد بينما ولد هذا الولد من زوجة أخرى فارتفع شأنها وأصبحت حتب حرس الثانية واحدة من الزوجات الثانويات .

ولم يكن باقى العائلة راضين عما حدث ، وكانت المؤامرات تحاك حول الملك الجديد ، وأخيرا وبعد مضى سنوات ثمانية يختفى « جدف رع » من مسرح الحوادث ويتولى عرش مصر أخ له يسمى « خفرع » كان قد تزوج من إبنة « كاوعب » و « حتب حرس الثانية » وهى مرسعنخ الثالثة .

ولكن النزاع بين فرعى العائلة لم ينته عند ذلك الحد إذ ندرك من دراسة بردية تورين ومن تاريخ مانيتون أو ذلك الفرع الآخر تمكن مرتين على الأقل من الإستيلاء على العرش فترة قصيرة إحداها بعد موت خفرع وقبل أن يتمكن إبنه من كاو رع من استعادة عرش أبيه ، والمرة الثانية فى واخر أيام الأسرة بعد وفاة شبسسكاف آخر ملوكها المعترف بهم إذ أن أكثر نصوص تلك الأسرة والوثائق التى كتبت فى العصور التالية اعتبرت أولئك الملوك الذين ينتمون إلى الفرع الآخر مغتصبين للعرش فلم تذكر أسماءهم ، واقتصرت فقط على ذكر أسماء خفرع ومنكاورع وشبسسكاف .

وفى عام ١٩٥٠ اكتشف أحد المشتغلين بالآثار على أحد الصخور فى وادى الحمامات نقشا فيه بيان بأسماء بعض ملوك الأسرة الرابعة وقد وضع اسم كل منهم فى خانة ملكية . وبالرغم من أن تاريخ كتابة هذا النقش لا يمكن أن يكون قبل الأسرة الثانية عشرة فإنه يصور لنا على الأقل ما كان معروفاً من معلومات عن تتابع ملوك الأسرة الرابعة فى أيام الدولة الوسطى .

وترتيب أولئك الملوك فى نقش وادى الحمامات كما يأتى : خوفو ، رع ددف ، خفرع ، حور ددف ، وأخيرا با – اف – رع (١) . أى أنه فى الفترة بعد موت خفرع لم يتول العرش شخص واحد بل اثنان نعرف أولهما وهو حور ددف من كثير من الوثائق إذ كان ابنا لخوفو وكان مشهور بحكمته وله مقبرة فى الجيزة ، أما الثانى فليست له مقبرة معروفة فى الجيزة . وهناك احتمال بأن يكون قد غير اسم الإله رع فى تركيب اسمه إذ نعرف اثنين من أبناء خوفو أحدهما يسمى با – اف – خنوم (والإله خنوم شديد الصلة بهذه العائلة واسم خوفو الكامل هو خنوم – خوف – وى كما ذكرنا) والثانى يسمى « با – اف – حور » . ونعرف من بردية وستكار (وهى من الدولة الوسطى مثل نقش الحمامات أن ابن خوفو الذى قص على أبيه قصة كبير المرتلين زازا – إم – عنخ مع الملك سنفرو كان اسمه « باو فرع » ، وكان ترتيبه فى قص القصة بعد خفرع وقبل حور ددف .

يكفينا هذا القدر من قصة النزاع بين أمراء هذه العائلة ، ويكفى أن نعرف أن الملك « رع ددف » حكم ثمانى سنوات فقط وأنه لم يكن قد انتهى من تشييد هرمه

عند وفاته . ولم يبن ، رع ددف ، هرمه على مقربة من هرم أبيه بل اختار له بقعة إلى الشمال من هضبة الجيزة فى موقع ممتاز يشرف على الوادى على مقربة من قرية أبو رواش الحالية ، ولم يكن هرمه أول قبر يبنى هناك بل كانت المنطقة معروفة منذ أيام الأسرة الأولى وفيها جبانات عدة من الأسرتين الأولى والثانية .

وعلى مقربة من مبنى الهرم الذى لم يتم حفره حفرا علميا كاملا حتى الآن قطعت بعض المقابر فى الصخر كما بنى البعض الآخر لعدد من موظفيه .

خفرع وهرمه :

وليس فى استطاعتنا أن نقول ما إذا كان ، رع – ددف ، قد مات ميتة طبيعية أو أنه كان ضحية مؤامرة من المؤامرات . وتلاه على العرش أخوه خفرع الذى طال حكمه فزاد عن حكم أبيه إذ من الثابت أنه لم يقل عن خمسة وعشرين عاما بل ربما وصل إلى تسعة وعشرين . واختار خفرع لبناء هرمه ربوة خلف هرم أبيه ، ولا شك فى أن مجموعة خفرع الهرمية من أعظم ما تم عمله من مبان فى الدولة القديمة ، ولكنا نلاحظ أن مهندسيه وصناعه لم يصلوا إلى ما وصل إليه زملاؤهم فى عهد خوفو من إتقان .

وهو لا يقل فى ارتفاعه إلا أمتارا قليلة عن هرم أبيه إذ كان ارتفاعه الأصلى ١٤٣,٥ متر وطول ضلع قاعدته المربعة ٢١٥,٥ متر أما داخله فبسيط إذا قيس بالهرم الأكبر ، وله مدخلان من الناحية الشمالية .

وكان هذا الهرم كغيره من الأهرام مكسوا من الخارج بأحجار جيرية من النوع الممتاز نزعت منه ومن غيره فى العصور الوسطى ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى لاستخدامها هى وغيرها مما بقى من أحجار المقابر والمعابد فى الجيزة وهليوبوليس ومنف ، وجبانتها وغيرها من الآثار ، لبناء أسوار القاهرة وبعض مساجدها ومنازل عظمائها ، بل إن أخذ الأحجار من الأهرام والمعابد لأجل البناء كان مستمرا حتى القرن التاسع عشر (١) .

ولم يبق من الكساء الخارجى إلا جزء بسيط فى أعلى الهرم ، أما باقى المجموعة الهرمية فهى لحسن الحظ فى حالة أفضل من مثيلتها فى هرم خوفو ويستطيع زائر المنطقة أن يرى بقايا معبده الجنازى ، ومعبد الوادى ، وبقايا الطريق الصاعد الموصل بين الإثنين كما يستطيع أن يرى حول الهرم الأماكن التى كانت توضع فيها المراكب اللازمة لرحلة الشمس ، وقد عثر منها على خمسة على الأقل ، كما يستطيع أيضا أن يرى بقايا مدينة العمال فى الجهة الغربية منه وهى مقسمة إلى ١١٠ قاعات وتتسع لإيواء عدد يتراوح بين ٣٥٠٠ ، ٤٠٠٠ عامل .

ويعطينا المعبد الجنازى لهذا الهرم فكرة عما وصلت إليه هندسة بناء المعابد بوجه عام فى ذلك الوقت كما يعطينا أيضا فكرة عما كان عليه قصر الملك أو غيره من الأثرياء القادرين .

يدخل الزائر من بابه الشرقى عند اخر الطريق الصاعد ، فيمر فى دهليز ضيق يؤدى إلى بهوين كبيرين كان يحمل سقف كل منهما أعمدة من الجرانيت ثم يرى بعد ذلك بهوا كبيرا لاسقف له وعلى جوانبه بواكى محملة على أعمدة كبيرة الحجم ، ويلى ذلك خمس حجرات صغيرة يرجح أن كل واحدة منها أقيمت لأجل اسم من أسماء الملوك الخمسة ، وأن جدرانها كانت مزخرفة برسوم للملك .

ويأتى بعد ذلك جزء خاص من المعبد كان لا يسمح بزيارته إلا للكهنة القائمين على خدمته ، وكان فيه الهيكل والمخازن التى كانوا يضعون فيها الأدوات التى تلزمهم فى تقديم القرابين أو أداء الصلوات للملك – الإله .

وكان الطريق الموصل بين هذا المعبد ومعبد الوادى مسقوفا ،(١) ونرى بعض بقايا جدرانه عند معبد الوادى الذى شيدوا جدرانه وأعمدته من جرانيت أسوان وبنوا بعض حجراته وأرضيته من كتل المرمر التى أتوا بها من محاجر حتنوب فى الجبل الشرقى خلف تل العمارنة .

وكان هذا المعبد يستخدم فى بعض الطقوس الدينية الخاصة بغسل الجثة وتطهيرها ثم تحنيطها وكان فى الوقت ذاته مدخلا للمجموعة الهرمية . وله بابان يوصلان إلى بهو مستطيل ثم إلى قاعة محمولة على أعمدة جرانيتية مربعة تمتد فى

وسطها فتكون بهوا آخر (الاثنان يكونان شكل حرف T) كان يقوم إلى جانب كل عمود فى الجزء المستطيل تمثال للملك .

وكانت تماثيل خفرع منتشرة فى أرجاء هذا المعبد وبعضها من حجر الديوريت، ومن بينها ذلك التمثال الشهير الذى يعتبر آية من آيات الفن المصرى ويمثل صاحبه وقد جلس على عرشه ووقف الإله حورس على شكل صقر خلف رأسه ليحميه ، وقد نجا هذا التمثال وغيره من تماثيل هذا الملك ؛ لأن كهنة المعبد حفروا فى وقت من الأوقات حفرة عميقة فى البهو الشرقى المستطيل أودعوها تلك التماثيل التى بقيت فى ذلك المكان حتى عثر عليها عند تنظيف مصلحة الآثار لذلك المعبد فى القرن الماضى .

وصل فن النحت إلى قمته فى عهد خفرع وأصبح فى استطاعة الفنان المصرى أن يسيطر سيطرة تامة على أقسى أنواع الحجر ، ويكفى أن يقف الإنسان أمام هذا التمثال المصنوع من الديوريت وهى مادة أصلب من الجرانيت والبازلت (١) ويرى نجاح الفنان فى التعبيرات التى ظهرت على وجهه ودقته فى إظهار عضلات الجسم ، ومظهره بوجه عام ، ليدرك مدى تقدم الفنان المصرى فى فنه ، ذلك التقدم الذى لم يتفوق عليه هو نفسه فى العصور التالية .

تمثال أبو الهول :

ولا يمكن أن يذكر الإنسان منطقة أهرام الجيزة إلا ويجد نفسه مضطرا لذكر « أبو الهول » التمثال الضخم الرابض على حافة الصحراء والذى احتل مكانة كبرى فى آداب العالم ، وكتب عنه الكتاب منذ أيام الرومان كثيرا من القصائد وحاكوا حوله الأساطير ، وطالما تساءلوا عما يخفيه من أسرار .

والحقيقة أنه لم يعد هناك سر يخفيه . فقد كشفت حفائر مصلحة الآثار فى عام ١٩٢٦ ، ومرة أخرى فى عام ١٩٣٦ ، عن كل ما هناك وأصبحنا متأكدين الآن أن هذا التمثال الكبير المقطوع فى صخر الجبل على هيئة أسد رابض وله رأس إنسان ليس إلا تمثالا للملك خفرع بانى الهرم الثانى ، وأن الصخرة التى هيأوها كانت جزءاً فى

محجر من المحاجر التى أخذ منها عمال خوفو بعض الأحجار اللازمة لبناء الهرم الأكبر وتركوا هذه الصخرة لأنها ليست من الحجر الجيد اللهم إلا فى طبقتها العليا .

فلما استقر رأى خفرع على تشييد هرمه على مقربة من هرم أبيه اضطر للانحراف بالطريق الموصل بين المعبدين ليتفادى هذا المحجر وجعل طريقه يسير على حافته وانتهى أخيرا بمعبد الوادى الذى أشرنا إليه .

ولا شك أن وجود تلك الصخرة كان يشوه المكان ، ولهذا رأى المشرف على العمل أن يستفيد منها لعمل تمثال لسيده الملك ، جسده على صورة أسد وهو أقوى الحيوانات ورأسه على صورة لرأس خفرع نفسه أى أنه كان جامعاً للقوة والعقل ، ثم أصلح أنحاء المحجر وبنى معبداً أمامه (١) .

منكاورع :

استطاع الحزب المعارض فى الأسرة المالكة أن يستولى على السلطة بعد وفاة خفرع وقد تحدثنا عن ذلك النزاع فيما قبل ، ولا تساعدنا معلوماتنا القليلة على الخوض فى هذا الموضوع أو معرفة المدة التى استغرقتها فترة عدم الإستقرار أو القول عن يقين إن كان قد حكم بين خفرع ومنكاورع ملك واحد من إخوة خفرع أو حكم ملكان .

ونرى بعد ذلك ، وقد عادت البلاد إلى حالتها الطبيعية أن الملك منكاورع أخذ يشيد هرمه على مقربة من هرمى أبيه وجده وقد وضع المهندسون تصميمه على أن يكون أقل منهما كثيراً فى الحجم (ارتفاعه ٦٦,٥ متر وطول ضلع قاعدته ١٠٨,٥ متر) ولو أنهم كانوا يقصدون أن يكسوه كله من حجر الجرانيت بدلا من الحجر الجيرى الأبيض ، ولكن لم يتمموا إلا نصفه فقط .

وقد ذكر الكهنة لهيرودوت الشىء الكثير عن ظلم كل من خوفو وخفرع للشعب

وكيف كرههما الناس ومقتوهما ، ويذكر أيضاً كيف خالف منكاورع أساليب من سبقه وأبطال الظلم وفتح المعابد فأحبه الناس .

وربما كانت هذه القصة تحمل بين ثناياها شيئا من الصدق ، فلا شك أن تشييد المجموعتين الهرميتين لخوفو وخفرع ومقابر موظفيهما كان عبئا كبيرا على كاهل البلاد والخزانة ، زاد من شدته ذلك التناحر بين فرعي البيت المالك الذى لم تستطع الأيام أن تخفف من حدته .

وبالرغم من أن منكاورع حكم أكثر من واحد وعشرين عاما (وربما امتد حكمه إلى ثمانية وعشرين عاما) فإنه لم يستطع أن يتمم تشييد هرمه الصغير أو معبده الجنازى أو معبد الوادى لهذا الهرم مشيد من الطوب اللبن وليس فيه شيء مشيد بالحجر إلا بعض الأرضيات والأعمدة وعتبات الحجرات ، وقد عثر ريزنر فى هذا المعبد عند حفره له على عدد من مجموعات التماثيل المصنوعة من حجر الشست (نوع من الإردواز) يمثل كل منها الملك منكاورع مع رمز لإقليم من الأقاليم وأحد المعبودات المهمة .

وقد نهب هذا الهرم كما نهب غيره فى عصر الفترة الأولى ولكن اللصوص تركوا الكثير مما لم يكونوا فى حاجة إليه ، وقد عثر پرنج (Perring) عندما فتح هذا الهرم عام ١٨٣٩ على بعض أجزاء من مومياء لرجل وعلى تابوت خشبى مكسور ربما كانا باقيين من الأثاث الجنازى للهرم (١) ، كما عثر أيضاً على تابوت للملك من حجر البازلت زخرفت جوانبه بالكوات الداخلية والخارجية التى تمثل واجهة القصر ، ولكن هذا التابوت غرق مع السفينة التى كانت تحمله إلى انجلترا عندما هبت عليها عاصفة شديدة أمام شواطىء أسبانيا .

السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الرابعة :

وتولى « شبسسكاف » الحكم بعد أبيه ولكنه لم يعش أكثر من أربع سنوات ، وقد امتازت هذه المدة القصيرة بحادث مهم كان مقدمة لحوادث أخرى ذات أثر كبير .

أخذ نفوذ كهنة الشمس يعظم ويزداد منذ قيام الأسرة الرابعة ، ولكن هذا النفوذ لم يكن ذا خطر فى أيام سنفرو أو خوفو ولكنه أصبح قوياً منذ عهد خفرع ، ولم يصبح إسم الإله رع جزءا من أسماء بعض الملوك وأمراء البيت المالك للتيمن به فحسب ، بل أخذ الاسم الخامس للملوك وهو اسم « ابن رع » ، يظهر أيضا ابتداء من عهد الملك خفرع.

ورأى «شبسسكاف أن يصنع حدا لهذا النفوذ والسطوة للكهنة فترك بناء قبره على شكل هرم لصلة ذلك بعبادة الشمس ، وأراد إهماله فبنى قبره على شكل تابوت كبير (١٠٠ متر × ٧٢ مترا وارتفاع ١٨ مترا) وهو المعروف باسم « مصطبة فرعون » فى سقارة القبلية وبنى فى جهته الشرقية معبده الجنازى كالمعتاد ، وأقام أيضا معبد الوادى والطريق الموصل بينهما ، إلا أن البناء لم يتم وربما لم يقدر لشبسسكاف أن يدفن فيه .

كانت هناك دون شك حركة ضد كهنة رع ، ولكن شبسسكاف لم يعمر طويلا ليحقق ما كان يهدف إليه وسرعان ما عاد التنازع فى البيت المالك إلى الظهور وقام واحد منهم (وربما كان اسمه چاف بتاح) واستولى على العرش وحكم نحو عامين.

وفى هذه الظروف المضطربة والفترة الدقيقة من تاريخ الأسرة تظهر سيدة من العائلة المالكة اسمها « خنتكاوس » فتكون الحلقة بين الأسرتين الرابعة والخامسة .

خنتكاوس :

فى شتاء عام ١٩٣١ – ١٩٣٢ كشفت حفائر جامعة القاهرة فى منطقة أهرام الجيزة عن حقيقة البناء الذى كان يطلق عليه « ليسيوس ١٠٠ » الذى كان يظن البعض أنه هرم لم يكمل بناؤه ، فاتضح أنه شبيه فى تصميمه بقبر الملك شبسسكاف أى على شكل تابوت كبير مشيد فوق صخرة فى المكان ، وأنه لم يكن لملك من الملوك وإنما كان لإحدى الملكات واسمها « خنتكاوس » . ومنذ هذا الاكتشاف حاول كثير من الأثريين تحديد مركز هذه السيدة من العائلة . وقد اختلفت الآراء فى بعض التفاصيل ولكن المرجح الآن هو أنها ابنة للملك منكاورع وإن كانت لم تذكر ذلك على آثارها ، وأنها تزوجت « شبسسكاف » ، وإن لم تذكر ذلك أيضاً ، وأنها عاشت خلال السنتين

اللتين حكمهما « ددف بتاح » ، ويظن أنها تزوجت من « وسر كاف » الذى أسس الأسرة الخامسة وأصبحت أما لابنيه اللذين حكما من بعده واحدا بعد الآخر . وهما « ساحورع » و « نفر إر كارع » أى أنها أصبحت أما لأسرة الخامسة .

ويلوح أن هذه الملكة كانت أصل الأساطير التى كان يرويها المصريون فى أواخر أيام حضارتهم ، فقد ردد هيرودوت ما سمعه في مصر من أن الذى بنى الهرم الثالث كان امرأة تسمى « رودوبيس » ، ولكنه كان متأكدا من أن بانيه كان منكاورع وأن رودوبيس لم تكن إلا إحدى المحظيات غير المصريات اللاتى اشتهرن بجمالهن فى القرن السادس قبل الميلاد وكانت لها مغامرات غرامية اشتهر أمرها بين اليونانيين . وقد ذكر مانيتون أن الذى بنى الهرم الثالث ملكة تسمى نيتو كريس وأنها كانت أقوى وأجمل امرأة فى زمانها .

ولكن معنى كلمة رودوبيس هو « وردية الخدين » ، وربما كانت الأسطورتان تشيران إلى خنتكاوس التى ربما كانت كبعض نساء أسرتها بيضاء البشرة شقراء الشعر فتحدث بجمالها الناس وأعجبوا بدورها الذى قامت به عندما استعرت نار الفتنة فى أواخر أيام الأسرة الرابعة ثم أصبحت أما لملكين جلسا على العرش .

ولكن كل هذه الآراء تفتقر إلى البرهان والدليل . وكل ما نستطيع أن نقوله هو إن خنتكاوس لم تجلس على العرش وأنها لم تدفن فى هرم وإنما دفنت فى قبر على شكل تابوت ، وأن هذا القبر كان يختلف سواء فى تصميمه أن فى عظمته عن قبور الملكات الآخريات اللاتى عشن فى تلك الأيام .

لقد عجلت ثورة شبسسكاف على كهنة رع بنهاية أيام تلك الأسرة التى تطاحن أفرادها منذ وفاة خوفو ، وأخيرا حوالى عام ٢٥٦٠ ق . م . انتهى عهد الأسرة التى أسسها سنفرو وحلت مكانها أسرة أخرى من كهنة الشمس .

الأسرة الخامسة

(٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق.م.)

نجح كهنة الشمس فى الإستيلاء على الملك وانتهى ذلك الصراع بزوال الأسرة الرابعة وانتقال العرش إلى بيت حاكم آخر .

وفى حقيقة الأمر لا تمدنا الآثار بمعلومات كافية عن هذا التغيير فنرى أن «وسر كاف» أول ملوك هذه الأسرة قد ترك منطقة أبو صير وذهب إلى منطقة سقارة وإختار مكانا قريبا من الهرم المدرج ولكن مجمرعته الهرمية وما عثر عليه من نقوش معبده لا تختلف عن أهرام ونقوش الأسرة الرابعة [1] فى شىء ذى أهمية .

ولسنا نعرف شيئا عن أصل « أوسر كاف » أو صلته بكهنة الشمس وإن كان من المحتمل أنه كان يتولى منصباً كبيراً فى معبد الشمس واستطاع بمعونة الكهنة أن يصل إلى العرش ويتزوج « خنتكاوس » ليصبح جلوسه على العرش شرعيا فى نظر الشعب .

وسواء أكان ذلك صحيحاً أو كان رجما بالغيب فإن الحقيقة التى لا يمكن التشكك فيها هو أن « خنتكاوس » كانت أما لملكين حكم كل منها عرش البلاد واحد بعد الآخر ، وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على الرأى القائل بأنهما الملكان اللذان جاءا بعد (أوسر كاف) وهما « ساحورع » و « نفر ار كارع » .

لم يكن انتقال الملك على هذه الصورة أمراً سهلاً لا يترك أثراً بين المصريين ، بل سببت تلك الحوادث هزة كبرى لم يكن لمصر عهد بها من قبل . إذ كانت بداية لزعزعة سلطة الجالس على العرش ومن السهل علينا أن نتصور أن تلك الحوادث جرت انقساما فى الآراء ، وأن كلا من الحزبين المتنازعين أخذ يبذل كل ما فى جهده لتأييد وجهة نظره والتغلب على حجج غيره .

وفى هذه الفترة المضطربة روج كهنة الشمس بين الناس قصة طويلة وصلت إلينا فى أحد قراطيس البردى التى كتبت فى الدولة الوسطى ، ألفوها ونسبوا حوادثها إلى عصر خوفو وجعلوها تتضمن أسماء بعض الملوك السابقين الذين لم يكن لهم

الشعب احتراما وتقديـــرا ، مثـل زوسر وسنفـرو وخوفو ، ليعطوها أهميـــة خاصـــة .

تتلخص قصة خوفو والسحرة (أو بردية وستكار) فى أن الملك خوفو جمع يوما من الأيام أولاده وطلب من كل منهم أن يقص عليه قصة عما يستطيع السحرة أن يأتوه من معجزات ، وبدأن أولهم بقصة عن زوسر (لم يحفظ منها إلا كلمات من خاتمتها) وتلاه آخر بقصة من عهد الملك نبكا وثالث بقصة عن الملك سنفرو . لم تكن تلك القصص إلا مقدمات أو تمهيدا فقط لما سيأتى بعد ذلك ، إذ يقول أحد أبناء خوفو لأبيه إنه يعيش فى أيامه ساحر عظيم يستطيع أن يأتى بالمعجزات ، فيرسله أبوه ليأتى من بلده ويقوم الساحر ببعض المعجزات أمام الملك ومنها إعادة الحياة لبعض الحيوانات بعد ذبحها وفصل رأسها عن جسدها . ثم يطلب خوفو من ذلك الساحر أمرا فيرد عليه بأنه لا يستطيع ولكن الذى يمكنه القيام بذلك هو أكبر أطفال ثلاثة فى بطن زوجة لكاهن حملت بهن من الإله رع نفس وأن الإله رع أخبرها بأنهم سيتولون عرش البلاد وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى مدينة « إيون » أى هليوبوليس . ويضطرب خوفو ولكن الساحر يطمئنه بأن ذلك لن يكون قريبا وأنه لن يحدث فى عهده ، وأن إبنه سيحكم من بعده ثم يحكم ابن ابنه ، ثم يأتى بعد ذلك واحد منهم . وتستمر القصة فتذكر حمل زوجة الكاهن وما تلا ذلك من ظهور عجائب ومعجزات وكيف حضرت آلهات الولادة مولدهن إلى آخر القصة .

وليس فى استطاعتنا أن نقول ما إذا كان النص الذى وصل إلينا ، وهو من عهد الدولة الوسطى ، هو صورة منقولة عن النص القديم الذى وضع فى عهد الأسرة الخامسة كدعاية سياسية لتلك الأسرة ، أم دخل عليه شىء من التغيير مع مرور الزمن، إذ أننا لم نعثر حتى الآن على أى أثر من عهد الأسرة الخامسة عليه رسم أو كتابة تشير إليها (١) . أما الهدف الذى كان يرمى إليه واضع القصة فهو إقناع الناس بأن استيلاء كهنة الشمس على عرش البلاد إنما كان شيئا مقدرا منذ عهد بعيد وأن هؤلاء الذين جلسوا على العرش ولم يكن يجرى فيهم الدم الإلهى الملكى ، إنما كانوا خيرا ممن سبقهم من الملوك ؛ لأنهم كانوا أبناء الإله رع من صلبه .

أوسر كاف :

ومما يؤثر عن عهد ، أوسر كاف ، ما ذكره حجر بالرمو من تشييده المعابد فى مختلف بلاد مصر مثل بوتو فى الدلتا لأجل عبادة الإلهة حاتحور وما أوقفه من أرض على معبد الإله رع .

وفى مقابر طهنا الجبل فى محافظة المنيا نرى اسمه فى مقبرة ، نى – كا – عنخ ، الذى كان كاهنا للإلهة حاتحور إذ أوكل إليه هذا الملك حق الإشراف على وقف شخص يدعى ، خنوكا ، مساحة أراضيه ١٢٠ ستاتاً (الستات مساحته نحو ٣/٢ أفدنة على وجه التقريب) وقد ترك ، مى كاعنخ ، وصيته مكتوبة على جدران قبره مقسما هذه المنح الملكية بين أفراد عائلته على أن يقوموا بجميع ما تتطلبه أعمال الإشراف على إدارة الأوقاف والقيام بخدمة معبد حاتحور سيدة مدينة القوصية ، إذ أن عمل ، نى كاعنخ ، الرئيسى كان فى ذلك البلد الواقع فى محافظة أسيوط ولكنه دفن فى قبره الذى أعده على مقربة من بلدة الأصلى فى طهنا .

أما عن هرم أوسر كاف فهو فى سقارة كما قلنا وقد عثر فى معبده على رأس لتمثال ضخم كبير من الجرانيت لهذا الملك . ونعرف من مصادر كثيرة أنه أول من بنى معبداً للشمس فى أبو صير ، ومن المرجح جداً أن يكون هو المعبد الذى حفرته بعثة المعهد السويسرى لدراسة العمارة المصرية القديمة بالقاهرة فى السنوات الأخيرة ، وعثرت فيه فى آخر مواسم الحفر عام ١٩٥٧ على رأس من حجر الشست كانت لتمثال وهى على درجة كبيرة من الإتقان تمثل ملكا يحمل التاج على رأسه ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن تخريب المعبد كان كاملا ولم يعثر فيه على أى نقوش أو يعثر فيه على اسم صاحبه مكتوبا على أى أثر حتى يمكن نسبة هذا المعبد وهذا الرأس إلى أوسر كاف دون تردد أو شك .

ساحورع : (٢٥٥٣ – ٢٥٣٩ ق.م.)

حكم أوسر كاف سبع سنوات فقط ثم تلاه على العرش ساحورع الذى حكم أربعة عشر عاما ، وكان أول ملوك الأسرة الخامسة الذين اختاروا منطقة أبو صير ليبنوا فيها أهرامهم (١) وعلى مسافة غير كبيرة من معبد أوسر كاف بنى ساحورع

هرمه على هضبة أبو صير بين أهرام الجيزة وسقارة وتبعه أربعة مما جاءوا بعده وهم « نفر إر كارع » و « شبسسكارع » و « نفرف رع » و « نى وسررع » فبنوا أهرامهم أيضا هناك وشيد أثنان منهم على الأقل معابد للشمس على مقربة من أهرامهم .

ولم يعتن ساحورع بتشييد هرمه إذ نراه فقير البناء صغير الحجم إذا قيس بأهرام الأسرة السابقة ، ولكنه استعاض عن ذلك بتشييد معبد فخم استخدم فى بنائه أثمن المواد المعمارية وعنى بتزيين قاعاته وأبهائه المحمولة على أعمدة الجرانيت ذى التيجان النخلية (على هيئة جريد النخل فى حزمة مربوطة) . وبلغ من عناية معماريى الأسرة الخامسة بعمارة هذا المعبد وغيره من المعابد حداً كبيراً لم نعرفه من قبل إذا لم يهملوا فى شىء واحتاطوا لدرء كل ما عساه أن يؤثر على سلامة البناء فلم يسقطوا المطر من حسابهم وجعلوه ينساب من مزاريب كل منها على هيئة رأس أسد تسقط المياه من أفواهها إلى قنوات صغيرة عمقوها قليلا فى الأرضية ، ثم تسير المياه منحدرة إلى الخارج . أما المياه التى كانت تستخدم داخل حجرات المعبد فى أجزائه المختلفة فكانت تسير من مواسير تحت أرضية المعبد ، وكانت هذه المواسير مصنوعة من النحاس وملحومة إلى بعضها بالرصاص ، وتسير إلى خارج المعبد حيث تصب فى أحد الأماكن المنخفضة فى مكان بعيد عن الأنظار .

ولا جدال فى أن فن عمارة المعابد وتشييدها قد تقدم كثيراً فى عهد الأسرة الخامسة كما زادت النقوش التى على جدران تلك المعابد وتنوعت ، و هذا يعوضنا دون شك على انصرافهم عن الاهتمام بالأهرام .

ونعرف من بقايا النقوش التى كانت تغطى جدران معبدى ساحورع والطريق الموصل بينهما كثيراً من نشاط هذا الملك وبخاصة فى ميدان الحرب إذ تعرضت مصر فى أيامه إلى غزو من ناحية الغرب عندما جاءت بعض القبائل الليبية ومعها زعماؤها ونساؤهم وحيواناتهم ليهاجموا الدلتا ويستقروا فى وادى النيل فهزمهم ساحورع .

ونعرف أيضاً من نقوش معبده فى أبو صير أنه أرسل أسطولاً إلى شواطىء فينيقيا ، ولكنا نرى أكثر من إقلاع ذلك الأسطول ثم عوته واستقبال الملك له يحف به كبار موظفيه مما حدا ببعض الباحثين فى التاريخ المصرى إلى الاعتقاد بأن ذلك الأسطول لم يرسل للحرب أو للتجارة وإنما كان فى رحلة ودية وربما عاد بأميرة من أميرات تلك البلاد لتصبح زوجة من زوجات ساحورع .

ولم يقتصر نشاطه على غربى مصر وعلى الساحل الفينيقى بل أرسل أيضاً حملة أخرى نحو الجنوب إذ ترك رئيسها اسم ملكة منقوشاً على أحد الصخور التى

على مقربة من شاطيء النيل عند توماس فى بلاد النوبة ، كما نعرف من حجر بالرمو أنه أرسل حملة إلى بلاد بونت ، وهى المنطقة التى حول بوغاز باب المندب وتشمل الشاطئين الإفريقى والأسيوى أى الصومال واريتريا فى ناحية وجنوبى بلاد العرب فى الناحية الأخرى . وأن تلك البعثة عادت ومعها مقابر كثيرة من البخور والذهب وعدداً غير قليل من أعواد من الأخشاب التى كان المصريون يهتمون بالحصول عليها ، وربما كان بعضها أو أكثرها من الأبنوس .

وهكذا نرى مصر وقد بدأت صفحة جديدة فى حياتها وأخذت تخرج من عزلتها فتتطلع بعينها نحو الجنوب ونحو الشرق وتعيد إرسال أسطولها التجارى إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتفتح عينيها فلا تسمح لبدو الصحراء الغربية بغزو الدلتا ، بل ربما كانت مناظر مهاجمة أحد حصون جنوبى فلسطين الذى نراه مرسوماً فى أحد مقابر دشاشة فى محافظة بنى سويف ترجع أيضاً إلى ذلك العهد الذى أرادت فيه مصر أن تمهد الطريق لإنشاء صلات تجارية مع جيرانها فى الجنوب وفى الشرق براً وبحراً(١) .

نفر إر كارع : (٢٥٢٩ - ٢٥٢٧ ق.م.)

ولم يكن الملك « نفر إر كارع » أقل طموحا من أخيه ، وقد فكر فى تشييد هرم أكبر من هرم ساحورع ، ولكنه مات قبل أن يتم جميع أجزاء مجموعته الهرمية . ولم يكن هذا الملك يشبه من سبقه على العرش فى نشاطه الحربى بل كان شخصاً طيب القلب محباً لتقديم الهبات للمعابد ، وفى نفسه شعور أصيل بحب من حوله والاعتراف بخطئه إذا أخطأ .

فأما عن حبه للكهنة والمعابد فيكفى أن نلقى نظرة على أعماله المسجلة فى حجر بالرمو فنرى أكثرها فى السنة الأولى من حكمه لا يعدو منح الأوقاف للآلهة يمنحها مرة للناس ومرة أخرى لأرواح هليوبوليس . أو نراه يقدم مذبحاً للإله رع ومذبحاً آخر للإلهة حتحور ، كما نراه أيضاً يقدم للفلاحين الذين يعملون فى الأراضى التى تملكها المعابد ، بل ويقدم تمثالا من خليط من معدنى الذهب والفضة .

ومن سوء الحظ أن الجزء المحفوظ من حجر بالرمو ينتهى عند ذلك فلا نعرف ماذا قدمه للكهنة والآلهة فى السنوات التالية ، ولكن هذه البداية كافية لتجعلنا ندرك أن عصر هذا الملك كان بدء ظهور سلطة الكهنة ظهوراً تاما واستغلالهم لطيبة نفسه للحصول على كل ما يريدون ، ولا نعجب بعد ذلك إذا رأيناه يصدر فى عهده مرسوماً

ملكياً (١) يسجل معافاة رجال الدين وفلاحى المعابد من القيام بأى عمل آخر تتطلبه مشاريع الإصلاح فى أى إقليم من الأقاليم ، ويهدد كل من يخالف ذلك من موظفى الحكومة فساعد ، نفر إر كارع ، بهذا العمل على تقوية الكهنة وإثرائهم . فإذا وضعنا فى أذهاننا أن المتربعين فى زعامة مراتب الكهنوت كانوا هم فى الوقت ذاته كبار الموظفين فى البلاد فإنا ندرك بسهولة لماذا أخذت سلطة الملك تضعف مع مرور الزمن ولماذا بدأت السلطة المركزية للحكومة فى التفكك ، ولماذا أخذ شأن كبار الموظفين وحكام الأقاليم يعلو ويزداد . ولنترك الآن هذه النقطة المهمة لنعود إليها مرة أخرى ونذكر بعض ما حفظه لنا تاريخ ذلك العصر عن طيبة قلب ذلك الملك .

كان لهذا الملك وزير يسمى ، واش بتاح ، كان يشغل فى الوقت ذاته وظيفة كبيرة القضاء ، والمشرف على جميع الأعمال الإنشائية للملك . وذهب الملك مع أبنائه ليشاهد العمل فى إحدى المنشآت الملكية فى يوم من الأيام وكان وزيره يسير إلى جواره ويشرح له ما تقع عليه عيناه . وسر الملك ومن معه مما رأوا وأثنى عليه كثيرا ، وبينما كان الملك يتحدث إليه سقط ، واش بتاح ، مغميا عليه . وعندما رأى أولاد الملك وأفراد عائلته ما حدث أصابهم الهلع وأمر ، نفر إر كارع ، أن ينقلوه فى الحال إلى القصر وأخرج جلالته صندوقاً مملوءاً بالقراطيس الطبية لعله يجد فيها علاجا له ، ولكنه لم يستطع مساعدته واعتكف فى مقصورته ليصلى لأجله ، وعندما أعلنوا للملك وفاته حزن وعاد إلى حجرته ليرفع صلواته إلى الإله رع ثم أمر بأن يصنع له تابوتاً من خشب الأبنوس المطعم كما أمر أن يكون تحنيطه أمامه وقد ذكر ابنه الأكبر ، الذى غمره الملك بإحسانه وأسند إليه بعض الوظائف الكبرى ، تفاصيل هذه القصة على لوحة أقامها فى القبر الذى شيده له فى سقارة .

وهناك قصة أخرى عرفت وقائعها فى عام ١٩٢٩ عندما كانت حفائر جامعة القاهرة تكشف عن آثار المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الطريق الموصل بين معبدى خفرع فى منطقة أهرام الجيزة .

لقد كشفت تلك الحفائر عن مقبرة أحد كبار موظفى ذلك الملك ويسمى ، رع ور ، وكان يحمل بين ألقابه الكثيرة لقب مدير القصر الملكى ، وكاتم أسرار الملك. وكان فى الوقت ذاته كاهن آلهة الوجه القبلى وكاهن آلهة الوجه البحرى . وحدث لهذا الموظف حادث بسيط مع الملك . كان ، رع وريسير ، إلى جوار سيده فى يوم احتفال رسمى بافتتاح عيد خاص وحدث أن الملك كان يحرك عصاه فضربت

دون قصد منه ساق « رع ور » فلما أدرك ما فعله استاء استياء شديداً وقال بأنه أحب شخص لديه واعتذر عما بدر منه ، ولم يكتف الملك بذلك بل أراد أن يجعل هذه الحقيقة معروفة للناس جميعاً وأن تنقش على لوحة حجرية ، وقد عثر على هذه اللوحة فى قبر ذلك الموظف .

وعلى ذكر قبر « رع ور » يكفينا أن نذكر أن عدد حجراته وأبهائه وممراته لا يقل عن خمسين ، ولو عددنا ما بقى من أجزاء تماثيله لتأكدنا أنه كان منها أكثر من مائة فى هذه المقبرة ، ولو ألقينا نظرة على الأحجار التى شيدت بها جدرانها ، وعلى الأخص أحجار الواجهة لأدركنا ثراء الكهنة الذى لم يكن يضارعهم فيه إلا الملوك ولو قارنا قبر « رع ور » بقبور أبناء سنفرو أو خوفو لرأيناه يفوقها فى عدد الحجرات أو الردهات وفخامة المبانى .

وليس قبر « رع ور » هو القبر الوحيد الذى نلمح فيه ثراء كبار الكهنة والموظفين بل نجد أمثلة كثيرة بين مقابر أبو صير والجيزة وسقارة . ولقد أصبح كبار الكهنة والموظفين على شىء كبير من الثراء والنفوذ ، وأصبحوا يبنون لأنفسهم مقابر تزيدفى حجمها وفخامتها أضعاف ما كانت عليه مقابر أبناء الملوك فى الأسرة الرابعة .

نى وسر رع (٢٥١٦ - ٢٤٨٤ ق. م.)

وهناك ملكان آخران حكما بعد « نفر إر كارع » وهما « شبسس كارع » و «نفرف رع» ولكنهما لم يتركا آثاراً مهمة ، وإن كان قد بدأ ثانيهما على الأقل فى تشييد هرم له فى منطقة أبو صير . ولم يظل حكمهما طويلا إذ حكم أولهما سبع سنوات والثانى أربع سنوات ، ثم جاء إلى العرش ملك آخر وهو « نى وسر رع » الذى طالت أيام جلوسه على العرش فزادت عن اثنين وثلاثين عاما وبنى له هرما فى أبو صير ، كما بنى معبدا للشمس فى المنطقة نفسها وحلى جدرانه بمناظر كثيرة ربما كان أهمها تلك المناظر التى تعطينا أهم ما وصل إلى أيدينا من تفاصيل مراسيم العيد الثلاثينى ، ونرى أيضاً بين المناظر التى كانت فى معبده ما يدل على حروب قام بها فى سوريا وحروب أخرى ضد الليبيين ، ولو لن هناك بعض الشك فى أنه لم يقم بمثل تلك الحروب وإنما كان الفنانون يقلدون مناظر معبد ساحورع الذى كان على مقربة منه . وقد عثر على مقابر مهمة كثيرة من عهد هذا الملك ، ربما كانت أهمها جميعا مقبرة «تى » فى سقارة التى قلما لا يذهب لزيارتها شخص يزور تلك المنطقة وهى تعطى بحق فكرة صادقة عن الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد .

جد كارع – إسيسى : (٢٤٧٦ – ٢٤٤٨ ق . م .)

وجاء بعد ، نى وسررع ، ملك يسمى ، منكاوو حور ، حكم نحو ثمانية أعوام ولا نعرف عنه إلا القليل (١) . ثم حكم بعد ذلك ملك قوى وهو ، جد كارع – إسيسى ، الذى حكم عهداً طويلا لم يقل عن ثمانية وعشرين عاما .

اهتم هذا الملك بتأمين حدوده واستغلال المناجم والمحاجر فأرسل حملة إلى بلاد النوبة وأخرى إلى وادى الحمامات وحملة أو أكثر إلى جبل المغارة فى سيناء حيث تركت أربعة نقوش باسمه .

وقد عرفنا من تاريخ حياة الرحالة ، حر خوف ، الذى قام برحلات عدة إلى جنوبى مصر فى الأسرة السادسة أنه عاش فى عهد الملك إسيسى أحد قادة السفن ويسمى ، باوردد ، استطاع أن يحصل على قزم حى فكافأه الملك وأغدق عليه من الهدايا الشىء الكثير ، ومعنى ذلك أن السياسة التى بدأها ساحورع فى أوائل أيام الأسرة الخامسة وهى الاتصال بالجنوب وفتح الطرق التجارية إليه والحصول على خيرات السودان وبلاد بونت ، لم يهمل أمرها من جاءوا بعده ، بل استمر عليها باقى الملوك وسنرى أنها ستزداد فى الأسرة السادسة .

كان اسم ، إسيسى ، دائما من الأسماء الشهيرة فى تاريخ الأسرة الخامسة واقترن اسمه بأسماء الكثيرين من كبار الموظفين الذين عثر على مقابرهم ، ومن بينهم الحكيم الشهير ، پتاح حتپ ، الذى كان مشرفا على تربيته . والذى ترك مجموعة نصائحه وإرشاداته ، وهى ذخيرة من الحكمة والإرشاد إلى حسن السلوك اعتز بها المصريون فى جميع عصورهم .

وفى عام ١٩٤٨ كشفت مصلحة الآثار عن المنطقة الواقعة حول هرم يسمى الهرم الشواف فى منطقة سقارة فوق الهضبة التى بنيت أمامها فى الوادى منازل بلدة سقارة ، وظهر فى ذلك المعبد كثير من النقوش الهامة فأصبحنا نعرف الآن أين هرمه وأين معبده ، كما كشفت مصلحة الآثار أيضا فى عام ١٩٥٢ – ١٩٥٣ عن هرم ومعبد آخرين لزوجته فى المنطقة نفسها .

ولم يعثر داخل هرم إسيسى على أى نقوش، أما المعبد فلم يكن يقل عن أى معبد آخر من معابد الأسرة الخامسة فى فخامته وجمال نقوشه ، وظهرت فيه بعض عناصر معمارية لم يكن لنا بها عهد من قبل مثل تزيين بعض المداخل بأعمدة فى شكل علامة « جد » وهى شديدة الصلة بعبادة الإله أوزيريس ، كما ظهر أيضا فى حفائر المعبد تماثيل لأسود وثيران وتماثيل لبعض الأسرى من الأجانب (١) .

أونـاس :

وآخر ملك فى الأسرة الخامسة هو الملك أوناس (أو « ونيس ») الذى يميل بعض المؤرخين الآن إلى اعتباره أول ملوك الأسرة السادسة ؛ لأن حكمه قد ارتبط ببعض التغييرات الجوهرية ، يضاف إلى ذلك ما نعرفه عن وفاء الملك تتى أول ملوك الأسرة السادسة له وإتمام ما لم يتمه من آثاره . ولكن ذلك لا يكفى لتغيير التقسيم القديم الذى أورده مانيتون ، وإذا كان « تتى الأول » قد أتم معبد أوناس فإن اسم أوناس نفسه قد عثر عليه فى معبد زوجة إسيسى ، كما نعرف أيضا أن سنفرو وهو مؤسس الأسرة الرابعة قد أتم تشييد هرم آخر ملوك الأسرة الثالثة . وترجع شهرة أوناس إلى ذلك التجديد الذى أحدثه إذ أن مجموعة النصوص الدينية الشهيرة باسم « نصوص الأهرام » لم تكتب على جدران الحجرات الداخلية للأهرام قبل عصر أوناس وأصبحت منذ عهده تكتب داخل أهرام الملوك وبعض الملكات ، وقد أمدتنا بالكثير من المعلومات الهامة عن عقائد المصريين القدماء (٢) .

ويرتبط اسم أوناس وهرمه بشيء آخر . فقد أشرنا أكثر من مرة إلى تلك الطرق أو الممرات التى كانت توصل بين معبدى الهرم أو بين الوادى والمعبد الجنازى المشيد فى الناحية الشرقية من الهرم وقلنا إن تلك الطرق كانت مفتوحة للسماء فى أول عهدها وربما أصبحت مسقوفة منذ عهد خوفو ونقشوا جدرانها الداخلية . وقد عثر على بعض المناظر التى كانت فى يوم من الأيام على جدران طرق خوفو وغيره من الملوك مستخدمة فى تشييد هرم أمنمحات الأول فى اللشت كما عثر أيضا على بعض مناظر تلك الطرق فى منطقة أبو صير ، ولكن لم يحدث من قبل أن وجد جزء كبير من ذلك الطريق محفوظا ومرسوما كما ظهر فى طريق أوناس عام ١٩٣٨ . كان هذا الطريق مسقوفا بالأحجار وسقفه ملون كأنه سماء زرقاء زينتها النجوم ، ويدخل إليه الضوء من كوات فى السقف .

وتجمع نقوش جدرانه بين موضوعات مختلفة . فنرى بينها مناظر تمثل أوناس يؤدى بعض الطقوس الدينية ، بينما نرى مناظر أخرى تمثله وهو يقضى على أعدائه. ومن بين تلك المناظر ما يمثل الزراعة والحصاد فى الفصول المختلفة ، ومن بينهما مناظر الصيد فى الصحراء أو فى الماء أو فى الحقول ، كما نرى فيها أيضاً مناظر تمثل بعض أعمدة المعبد وأعتابه المصنوعة من الجرانيت ، وهى تنقل فوق سفن على صفحة النيل .

ولم تقتصر تلك المناظر على ذلك بل أن من بينها ما يمثل بعض الأجانب الذين جاءوا إلى مصر ، وبعض الذين أضربت بهم المجاعة وكادوا يهلكون جوعا ، وفى تفاصيل المناظر كثير من المعلومات التى أضافت الكثير على ما نعرفه عن مصر فى ذلك العهد ، ونرجو أن يتم حفره وأن ينشر نشراً علمياً كاملاً فى وقت قريب (١).

وبالرغم من أننا نعرف الشيء الكثير عن أيام حكم « إسيسى » وعن حكم « أوناس » الذى بلغ ثلاثين عاما ونعرف أيضا الكثير عن حكم الملك « تتى الأول » فإنا لا نجد فى تاريخ تلك الحقبة ما يمكن أن نقول عنه إنه كان سببا لتغيير الأسرة ، وربما كان المستقبل كفيلا بإظهار ذلك .

وهناك رأى نادى به بعض المشتغلين بالآثار وهو أن « أوناس » لم يكن آخر ملوك الأسرة الخامسة ولكنه مؤسس الأسرة السادسة وأول ملوكها .

وما من شك فى أن مدة حكم أوناس امتازت بكثير من التغييرات فى أكثر من ناحية ولكن ذلك كله لا يكفى لإثبات أنه كان مؤسس الأسرة السادسة ، بل من الأفضل اعتباره من الأسرة الخامسة .

تولت الأسرة الخامسة عرش البلاد بعد فترة اضطراب وصراع بين أفراد البيت المالك فى الأسرة الرابعة من ناحية ، وبين ملوك هذه الأسرة فى النصف الثانى من حكمها وبين كهنة رع من ناحية أخرى ، أولئك الكهنة الذين أخذ نفوذهم يزداد وأصبحوا خطر على سلطة الملك .

وانتهى ذلك الصراع بتأسيس أسرة مالكة جديدة وثيقة الصلة بكهنة الشمس فشيدت المعابد المختلفة لرع والآلهة المتصلين به ، وأغدقوا العطايا والهبات والأوقاف والامتيازات على المعابد وكهنتها فماذا كانت النتيجة ؟ لقد ازداد الكهنة نفوذا وقوة ولم يعد للملك ما كان له من سلطان ونفوذ وأخذ كبار الموظفين يزدادون ثراء فهل تأصلت عبادة الشمس فى نفوس الناس وأصبحت وحدها فى البلاد ؟ والجواب على ذلك واضح صريح فقد ضعف نفوذ الملك ، وإن ظلت عبادة الشمس كما هى أى الديانة الرسمية للبيت المالك ، إلا أننا نلاحظ أنه أخذت تظهر عليها عقيدة أخرى ، وهى عقيدة أوزيريس التى كانت قريبة من مدارك الناس .

كان المستقبل السعيد فى الحياة الأخرى ، حسب عقيدة الشمس ، يتوقف على الثراء والنفوذ . فكان الملك المتوفى يدفن فى قبر فخم ويبنى المعابد ، وكان يركب سفينته ليسير وراء سفينة الشمس فى الليل والنهار وينعم بالنور والضياء . وكان عليه أن يحفظ الكثير من التعاويذ التى كان فى حاجة إليها إذا أراد السلامة والاهتداء فى العالم الآخر . وكان المحيطون بالملك يرجون أن يكونوا معه يخدمونه فى الآخرة كما خدموه فى الدنيا وكانوا يبنون المقابر الفخمة ويحبسون عليها الأرض للإنفاق عليه وتقديم القرابين ، ولكن ما هو مصير العامة والفقراء من الناس – وهم الغالبية العظمى للشعب – الذين لم تكن تربطهم بالملك ورجال بلاطه والأثرياء من الحكام رابطة مباشرة ؟ . كان الأغنياء واثقين من نهايتهم السعيدة ؛ لأنهم كانوا أثرياء وفى صحبة الملك ويستطيعون أيضاً الاتفاق مع الكهنة للصلاة على أرواحهم وتقديم القرابين لهم فى أوقات معينة ، ولكن ماذا يفعل الفقراء ؟ كان الناس فى حاجة إلى دين يقول بمكافأة المحسن الطيب القلب الذى لا يفعل السوء دون نظر إلى فقره أو غناه ، وقد وجدوا ذلك فى تلك العقيدة القديمة التى عرفها المصريون منذ أيام الأسرة الأولى بل وقبل ذلك ولكن لم يكن لها النصر والانتشار إلا فى أيام الأسرة الخامسة .

كان أوزير (أو أوزيريس) يمثل الحاكم العادل الذى صرعته عوامل الشر والحسد ممثلة فى أخيه « ست » ولكن وفاء زوجته إيزيس التى خرجت تبحث عن جثته تارة وتجمع أشلاءه تارة أخرى ، وبكاءها عليه واستدرار عطف الآلهة جعل منه ملكا للأموات . وقامت إيزيس مرة أخرى تطالب بحق ابنها « حورس » الذى حملت به من روح أوزيريس بعد موته ، فلقيت ما لقيت من « ست » واتهامه لها ، ثم برأتها الآلهة التى كانت تعرف الحقيقة ، ومع ذلك فقد قامت الحرب بين ست وحورس حتى انتصر ابن أوزيريس وجلس على عرش أبيه وبذلك انتصر الحق على الباطل .

ولم يكن أوزيريس العادل الرحيم وهو ملك فى دنيا الأموات يأبه إلا بالحق والعدل ولا ينعم بجنته إلا من تطهر قلبه وحسنت سريرته ونواياه وابتعد عن أذى الناس ، لا يفرق بين غنى وفقير . كان كل إنسان يلاقى ما فعله حاضراً ، وكانت الجنة لمن أحسن واتقى ولم يظلم الناس أو يأتى بخائنة ، والعذاب والجحيم لمن سولت له نفسه عمل السوء لا تشفع له أمواله أو صلوات كاهن ، أو قرابين يقدمها أهله وذووه .

لقد وجد الناس فى تلك العقيدة صدى لما فى النفس البشرية فأقبلوا عليها ، بل أن الملوك أنفسهم منذ أيام الأسرة الخامسة كانوا يلقبون أنفسهم باسم أوزيريس ثم أصبح استخدام إسم أوزيريس عاما لكل فرد قبل أن يمضى وقت طويل ، ولكن هذا النصر لأوزيريس لم ينل كثيراً من عقيدة الشمس فى مظهر الدولة إذ ظل لقب « ابن الشمس » الذى استخدمه بعض ملوك الأسرة الرابعة وأصبح عاما منذ الأسرة الخامسة لقباً أساسياً حتى آخر أيام التاريخ المصرى ، كما ظلوا ينظرون إلى الجالس على عرش مصر إلها تجسد فيه حورس . وكان الكهنة المصريون كعادتهم حصيفين ، فإذا رأوه إلها من الآلهة يعلو نجمه لسبب من الأسباب ، أسرعوا فى وضع القصص والأساطير التى يربطون فيها بين ذلك الإله وبين الآلهة المختلفة ، وبخاصة الآلهة الرئيسية ، ولهذا لا يدهشنا إذا رأيناهم يضعون قصصاً يربطون فيها بين رع وبين حورس وبين أوزيريس وغيرهم من الآلهة ، ولم تجد طبيعة التسامح المتأصلة فى طبيعة النفس المصرية ما ينفر المصريين من قبول ذلك .

كانت أيام الأسرة الخامسة من الأيام الحاسمة فى التاريخ المصرى ، شهدت ، تطوراً كبيراً فى العقيدة كما شهدت تطوراً فى مركز الملكية وبدأ يعظم فيها نفوذ أعيان البلاد ويزداد ، حتى أصبحوا لا يخشون الجالس على العرش . ورأينا فيها ازدياد شأن عقيدة أوزيريس التى كان يتساوى فيها الناس ولا تفرق بينهم ثروة أو فوارق اجتماعية .

وعلى جدران مقابر تلك الأسرة وأوائل الأسرة السادسة نستطيع أن نرى الكثير من المناظر التى تمثل حياة الشعب ، نرى فيها صاحب القبر يشرف أحيانا على حقوله التى يعمل فيها رجاله ومرة نراه يجلس بين أسرته وأصدقائه يستمع إلى عزف الموسيقى وغناء المغنين ويمتع طرفه برقص الراقصات ، ونرى الصناع وهم يعملون فى الحرف المختلفة فهنا النجارون وهناك الصياغ وعلى مقربة منهم صانعو الأوانى ، وعلى مسافة قريبة نرى بنائى السفن ، وغيرهم .

ونرى الأتباع وهم يحضرون الأزهار والهدايا المختلفة ، ونرى الكهنة وهم يقومون ببعض الطقوس الدينية ، ننظر إليها كلها فنحس كأننا نعيش بين القدماء ننظر إلى ملابسهم وحليهم ونتأمل فى محصولات حقولهم وحدائقهم ، ننظر إلى الطيور والحيوانات التى كانوا يربونها ، ونقف طويلا أمام الأسماك السابحة فى المياه وإلى حيوانات الصحراء التى خرجوا لصيدها ، نراها كلها وقد أبدع الفنان المصرى فى رسمها فإن أصحابها أرادوا تصويرها على مقابرهم لتأنس أرواحهم بما كانوا يروته فى دنياهم وما أرادوا أيضا أن يكون لهم فى آخرتهم. وقد أحسنوا صنعا ، فلولاها لما عرفنا الحياة فى مصر القديمة كما نعرفها الآن . ولم يترك المصريون تلك المناظر دون شرح قليل فتراهم قد كتبوا إلى جانبها ما يفسرها لنا ، وكثيرا ما نقرأ النكات التى كان يتبادلها الصناع أو العاملون فى الحقل وكلها تنبىء عن ميل أصيل للمرح ، وحب الفكاهة .

الأسرة السادسة

(٢٤٢٠ - ٢٢٨٠ ق.م.)

ذكر مانيتون عن هذه الأسرة أن أصلها من منف ، وهذا محتمل جدا إذ كلما تقدمت الأبحاث الأثرية كلما ازددنا اقتناعا به ؛ لأننا نلاحظ فى أعمال مؤسسها اتجاها صريحا نحو الإعلاء من شأن پتاح إله مدينة منف وتقريب كهنته والانصراف عن كهنة الشمس ، فهل قامت فى مصر فى عهد آخر ملوك الأسرة الخامسة حركة ضد نفوذ كهنة الشمس ، وكان القائمون بها من أهل منف الذين أخذ نجم إلههم يعلو مع ازدياد قوتهم السياسية ووصولهم إلى العرش ؟

ولن نستطيع الإجابة برأى قاطع على هذا التساؤل طالما لا تظهر فى الاكتشافات الأثرية وثائق جديدة تنير أمامنا الطريق أكثر مما لدينا الآن .

كان مقر حكم هذه الأسرة كمن سبقها من الأسرات منذ الأسرة الثالثة على الأقل فى العاصمة أى فى منف ، وكان أول ملوكها « تتى » ، وقد دفن فى هرمه الذى شيده فى سقارة . ويذكر لنا مانيتون أنه لم يمت ميتة طبيعية بل قتله حراسه ، وربما كان ذلك صحيحاً ؛ لأن مؤسسى الحكم الجديد يكونون معرضين دائما لإنتقام من نحوهم عن السلطان وأبعدوهم عن مكان الصدارة ، ويعززه أن من جاء بعده على العرش وهو الملك « أوسر كارع » (١) لم يبق فى الحكم إلا سنوات قليلة ولم يكد يخلف وراءه آثاراً فى البلاد . ولأمر ما أسقطته النقوش القديمة التى تلت هذه الفترة ، إذ ربما كان من البيت المالك القديم ، استعاد عرش أسرته ولكنه غلب بعد ذلك على أمره فلما استتب الأمر للملك « پيى الأول » لم يجرؤ الموظفون على ذكره إذ اعتبروه مغتصبا خارجا على السلطة الشرعية ، ففى تاريخ حياة « ونى » أعظم شخصيات ذلك العهد نراه يذكره كيف بدأ حياته فى عهد « تتى » عندما كان طفلاً صغيراً يتمنطق بحزامه ويذكر الوظائف التى تولاها فى شبابه ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى عهد « پيى الأول » الذى عاصر كل سنى حكمه ثم امتد به العمر بعد ذلك . نرى « ونى » ينتقل مباشرة

إلى عهد پيى دون إشارة إلى حكم من جلس قبله على العرش ، ولم يكن يجرؤ على إسقاط ذلك الملك لو لم يكن متأكداً أن فى ذلك إرضاء للعائلة الذى حاز على ثقة ملوكها وربى فى نعمائهم .

ببى الأول : (٢٤٠٢ - ٢٣٧٧ ق.م.)

انتقل ببى الأول بلاده مما كانت فيه وتمتعت مصر خلال الخمسة وعشرين عاما التى حكمها بعصر زاهر ، ارتقت فيه الفنون وعادت مصر مرة ثانية إلى صلتها بمن جاورها من الأمم ، ويكفى الإنسان أن يرى تمثاله الكبير المصنوع من النحاس فى متحف القاهرة أو تماثيله الأخرى فى غيره من المتاحف وبخاصة تلك التماثيل المصنوعة من المرمر فى متحف بروكلين فى نيويورك أو يزور معبده فى سقارة القبلية على مقربة من مصطبة فرعون ، ويمتع طرفه بجمال نقوشه ليدرك أن المستوى العظيم الذى وصلت إليه النقوش بين أيام إسيسى فى الأسرة الخامسة والملك تتى فى الأسرة السادسة ظل عالياً .

ولسنا نعرف حتى الآن الصلة الحقة التى تربط بين هذا الملك وبين ، تتى ، مؤسس الأسرة ، ولكنا نعرف أن حياته العائلية لم تكن فى مستهل حياته خالية من المؤامرات إذ يذكر لنا ، ونى ، الذى أشرنا إليه أن هذا الملك عينه ليكون بين المحققين مع زوجته لثقته فيه ، ولكنا لا نعرف على وجه التحديد ما هى المؤامرة التى حوكمت هذه الملكة من أجلها .

على أى حال فبعد محاكمة الملكة ، إمتس ، أراد أن يوطد مركزه فى البلاد فالتجأ إلى سياسة جديدة وهى مصاهرته لإحدى العائلات القوية فى الصعيد فاتخذ ابنة أمير منطقة أبيدوس ونجع حمادى زوجة له وأصبحت أما لابنه ، مرى إن رع ، الذى تولى الحكم من بعده ، ثم تزوج أيضاً من أخت لها ورزق منها بابن آخر تولى الملك وهو طفل بعد موت أخيه .

وكان من بين الأعمال التى سجلها ، ونى ، فى تاريخ حياته فى عهد پيى الأول تلك الحملات التى جمع ، ونى ، رجالها من جميع أنحاء الصعيد ، وقبائل النوبة وفى إحداها تعاون الأسطول مع الجيش على قهر أولئك الذين هددوا مصالح مصر فى فلسطين فى ذلك العهد .

خلفاء ببى الأول :

كان ، مرنرع ، (مرى إن رع) طفلا صغيرا عندما مات أبوه ، إذ أنه بالرغم

من جلوسه على العرش نحو عشر سنوات فقد كان عند وفاته شابا يافعا لم يبلغ الحلم إذ كانت تتدلى خصلة من الشعر على جانب رأس مومياته التى عثر عليها فى هرمه . وتكاد معلوماتنا عن عصر هذا الملك تنحصر فيما أمدتنا به لوحة « ونى » التى ذكرت الأعمال التى كلفه بها وكان آخر عمل قام به هو حفر لخمس قنوات فى صخور الشلال عند أسوان لتسهيل الاتصال بين مصر والبلاد الواقعة إلى الجنوب منها ، إذ أصبحت سياسة الأسرة السادسة هى الاتصال بالجنوب وإرسال قواد الحملات لاستكشاف تلك البلاد وإحضار خيراتها وسنتكلم عن ذلك بشىء من التفصيل فيما بعد .

وبعد وفاة « مرنرع » الأول تولى الملك أخوه الطفل « پيى الثانى » وقد ذكر مانيتون أنه حكم أربعة وتسعين عاما وأنه جلس على العرش وعمره ٦ سنوات (١) . وكانت أمه منذ بداية حكمه وصية عليه ، وكان خاله الأمير « زاو » الذى أصبح وزيراً له ، صاحب النفوذ الأول فى البلاد . وقد أقامت هذه العائلة مقابرها منحوتة فى الصخر فى المنطقة المعروفة باسم القصر والصياد على مقربة من نجع حمادى فى محافظة قنا .

وربما كان أشهر ما تم من أعمال فى السنوات الأولى من حكم هذا الملك تلك الحملات التى كان يرسلها إلى الجنوب تحت إمرة حكام الفنتين.

لقد ضعفت سلطة الملوك بازدياد نفوذ حكام الأقاليم الذين أصبح كل منهم أميراً حاكما فى مقاطعته لا يكاد يربطه بالعرش إلا خيط واهن ضعيف من الولاء . وفى مثل تلك الظروف وعندما تتفكك عرى السلطة المركزية تزداد الأعباء على كاهل الحكومة فتتعطل المشروعات العامة ويحاول كل موظف من الموظفين أن يثرى ويجمع ما يستطيع جمعه من الثروة ، فتتكدس الأعباء والمظالم على كاهل الفلاح المسكين الذين يصبح فريسة لكل من هب ودب من الأغنياء أو من موظفى الحكومة.

ومن سوء الطالع أن العمر امتد بذلك الملك الضعيف فازداد انهيار البلاد واشتدت المظالم وعندما فاض الكيل شبت ثورة عاتية فى البلاد ، ثورة على العرش وعلى الحكام وعلى الآلهة . وتولى الحكم فى آخر أيام هذه الأسرة اثنان وكان أولهما يسمى « مرى إن رع الثانى » وقد حكم سنة واحدة ثم جلست على العرش امـــرأة

وهى « نيت إقرت » التى ذكرها مانيتون باسم « نيتوكريس » فلم تبق إلا عامين ثم عمت الفوضى وانتهت أيام الأسرة السادسة وأيام الدولة القديمة .

ذلك هو مختصر التاريخ السياسى لهذه الأسرة ، ولن يكون عرضنا لتاريخ هذه الأسرة صحيحا إلا إذا تحدثنا بشىء من التفصيل عن ثلاثة مواضيع أولها تاريخ حياة القائد « ونى » ، وكثيرا ما يذكر فى بعض كتب التاريخ والآثار تحت اسم « أونى » وهو الأقدم والأكثر شهرة لهذا الاسم ، الذى لعب الدور الأكبر فى تاريخ البلاد فى أيامه وثانيها موضوع الرحالة الذين ذهبوا إلى السودان ، ثم الحديث عن تلك الثورة الاجتماعية التى هب فيها الشعب لينتقم لنفسه ممن ساموه الظلم والاضطهاد .

القائد « ونى » :

كان ضعف سلطة الملوك فى الأسرة الخامسة مشجعاً لبعض كبار الموظفين على أن يتباهوا فى مقابرهم بما فعلوه وبما رفع من قدرهم فى خدمة الملوك . وكلما مر الزمن كلما ازداد هذا التقليد فأكثروا منه ، وربما كان أهم نقش بل وأهم وثيقة تاريخية خلفتها لنا الأسرة السادسة ، وهى لوحة « ونى » الذى كان فى يوم من الأيام قائما فى قبره فى أبيدوس وهو الآن فى المتحف المصرى ، ويقص فيها علينا تاريخ حياته وأعماله المختلفة فى خدمة ملوك تلك الأسرة (١) .

ويذكر « ونى » أنه بدأ حياته فى الحكومة فى عهد الملك « تتى » أول ملوك هذه الأسرة وكان إذ ذاك فتى يافعا ثم رقى فى عهده إلى أن أصبح فى مركز كبير إذ كان مديرا لمكتب الزراعة كما كان فى الوقت ذاته مديرا لأراضى الملك . ويستمر « ونى » فى قصته ، وقد تعمد ألا يشير إلى من حكم بعد « تتى » كما قلنا ، ويذكر باقى تاريخ حياته فى عهد پيى الأول ، فيذكر محبة الملك له وثقته فيه إذ أسند إليه أيضا وظيفة كبرى فى القضاء وهى وظيفة « قاضى تخن » وجعله رئيساً لمجلس الستة وبذلك كان من أهم شخصيات ذلك العهد ووصلت ثقة الملك فيه أنه كان يحقق فى قضايا الملك الخاصة بحريمه .

ويقص علينا « ونى » أيضا كيف أسند إليه مهمة تأليف جيش عدد رجاله « عشرات الآلاف » من جميع بلاد الوجه القبلى ، من الفنتين فى الجنوب حتى إطفيح

فى الشمال ، وكذلك من أفراد القبائل التى كانت تعيش فى ذلك الوقت فى بلاد النوبة مثل إرثت وإيام وواوات والمجا وغيرها ، وأسند إليه إمرة هذا الجيش الكبير . ويفخر القائد الشاب بأن النظام كان مستتبا بين جنوده وأن جميع رجال الجيش كانوا مثالا لما يجب أن يكون عليه الجندى فلم يتعرض واحد منهم لأى شخص فى أى بلد مروا به ولم يغتصب أحد منهم شيئا مهما قلت قيمته .

وأتم ما كلفه به سيده ، وبالرغم من أنه لم يذكر اسم مكان خاص بل كان يشير دائما إلى القاطنين فوق الرمال فإن هذه الحملة لم تكن ضد شبه جزيرة سينا بل كانت فى فلسطين ، إذ أنه يذكر فى شعره الذى تغنى فيه برجوع الجيش سالما ، أشجار التين وكروم العنب ويشير إلى بلاد آهلة بالسكان .

وأهم ما فى هذا النقش ما ذكره « ونى » بعد ذلك من أن ثورة أخرى قامت فى تلك البلاد فأرسله الملك لإخمادها ، فجهز جيشين أحدهما سار بطريق البر ، وسار هو مع الجيش الآخر بطريق البحر فنزل عند مكان من المحتمل جدا أن يكون قريبا من جبال الكرمل ، وسار بعد ذلك فى داخل البلاد وانتصر ، وقمع تلك الثورة (١) . كانت حملات « ونى » على فلسطين هى آخر أعماله الهامة فى عهد ببى الأول فلما تولى ابنه « مرى إن رع » حكم البلاد لم يفرط فيه بل زاد من قدره فعينه حاكما على الصعيد كله ، وكان يسند إليه من آن لآخر مهمة إحضار الجرانيت اللازم لهرمه ومعابده من منطقة أسوان وإحضار المرمر من محاجر حتنوب فى محافظة أسيوط . وكان آخر عمل كبير قام به فى عهد هذا الملك حفره لخمس قنوات فى صخور الشلال الأول لتسهيل سير السفن ، وقد أتم ذلك فى عام واحد ، وذهب « مرى إن رع » بنفسه ليرى العمل بعد إتمامه وليقدم له زعماء أسوان وقبائل النوبة ولاءهم ، ويقدم قرابينه للإله خنوم سيد منطقة الشلال . وينتهى « ونى » من قص تاريخ حياته عند إشارته إلى شق القنوات . ويذكر أن كل ما ناله من تكريم كان بسبب مزاياه وقيمته الشخصية وتفانيه فى تنفيذ أوامر الملك ، ويختم نقشه بقوله بأنه كان محبوبا من أبيه ممدوحا من أمه ، ويذكر اسمه مسبوقا بأعظم لقب ناله وهو لقب حاكم الوجه القبلى .

الرحالة المصريون يرتادون الجنوب :

زاد اهتمام ملوك مصر بشئون الجنوب منذ أيام الأسرة الخامسة عندما كانوا يرسلون الحملات لإحضار خيرات السودان . وزاد هذا الاهتمام فى الأسرة السادسة فأوكلوا إلى أمراء جزيرة الفنتين وتعرف الآن باسم جزيرة أسوان مهمة القيام بتلك الرحلات إذ كان أولئك الأمراء أعرف الناس بما يلى بلادهم ، وكانوا يشرفون على الحدود المصرية فى الجنوب . وأثمرت سياسة « ونى » وبخاصة منذ توليه أمر وظيفة حاكم الوجه القبلى ، فوطد صلته بزعماء النوبة وكان هؤلاء الزعماء وأتباعهم يتطوعون فى الجيش المصرى عند قيامه بالحروب فى فلسطين كما كانوا يختارون من بين أولئك النوبيين حراساً يسهرون على الأمن منذ أيام الأسرة السادسة فى العاصمة وربما فى غيرها من المدن أيضاً .

وعندما كان « ونى » حاكما على الوجه القبلى ، وكان الرجل الذى يلى الوزير فى الأهمية ، نراه يهتم بإرسال الرحالة نحو الجنوب فقام حر خوف بحملاته الثلاث الأولى – كما قص علينا فى تاريخ حياته المسطر على واجهة قبره فى أسوان (١) فى عهد الملك « مرى إن رع » أما رحلته الرابعة فقد كانت فى عهد الملك پيى الثانى .

كان حر خوف حاكما لإقليم الفنتين ولكنه فى الوقت ذاته كان كاهنا لبعض الآلهة أما لقبه الرئيسى الذى كان يعتز به أكثر من كل ما عداه فهو لقب « رئيسى الحملة » . كان حر خوف فى حملته الأولى فى صحبة أبيه وكان يمشى « إرى » إلى منطقة تسمى بلاد إيام لفتح الطريق إلى تلك البلاد ، وقد تمت الرحلة فى سبعة شهور. ويستمر حر خوف فى سرد قصته فيذكر أن ملكه أرسله وحده فى المرة الثانى فخرج من ألفنتين ويذكر بعد ذلك البلاد التى مر بها واحدا بعد آخر ويفتخر بأن أحداً من الرحالة الذين سافروا قبله لم يتسن له لرتياد المناطق التى ارتادها أو يعود من رحلته بمثل ما عاد به من هدايا .

وفى رحلته الثالثة اتخذ طريقاً آخر ، إذ سافر على « درب الواحات » ، ووجد حر خوف أن حرباً قد استعرت بين زعيم قبيلة « إيام » وبين قبائل الـ « تمحو » الذين كانوا

يعيشون فى غربى مصر ، فأصلح بينهم وعاد من تلك الرحلة ومعه ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والأبنوس والعطور وجلود الفهد وأنياب الفيلة وبذر السمسم وغير ذلك ، كما رافقه فى عودته بعض زعماء القبائل ليدلوه على الطريق .

ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث له فى رحلته الرابعة التى قام بها فى العام الثانى من حكم الملك پيى الثانى ؛ لأن حصوله على قزم من تلك الرحلة قد غطى على كل شىء آخر . ولو حللنا تفاصيل تلك الحملات وتتبعنا البلاد التى ذكرها لخرجنا بالنتائج الآتية :

(أ) كانت أولى رحلاته مع أبيه ، وقد وصل إلى بلاد « إيام » أى المنطقة الواقعة جنوبى وادى حلفا .

(ب) كانت رحلته الثانية فى مناطق لم يسبقه إلى اختراقها أحد من قبل . وقد كانت هاتان الرحلتان تبدآن بالنزول فى النيل إلى مكان معين قريب من وادى حلفا ثم يبدأ بعد ذلك سيره بالبر .

(جـ) أما الرحلة الثالثة فقد كانت فى طريق البر ، وسار فيها على درب الأربعين [1] . واتصل فيها بالتمحو ، ومن المحتمل جداً أن هدفه الذى حققه كان الوصول إلى دارفور .

(د) وربما شجعه نجاحه فى رحلته الثالثة على السفر مرة أخرى ، ولكن نجاحه فى الحصول على قزم جعله لا يذكر شيئاً آخر سواء عن الطريق الذى اتخذه أو الحاصلات والهدايا التى عاد بها ، أكثر من أنه كان قد وصل إلى المنطقة الواقعة إلى جنوبى وادى حلفا (إيام) . وأرسل حر خوف ينبىء الملك بحصوله على ذلك القزم فتلقى رسالة من الملك كتبها بخط يده ، وقد اعتز بها حر خوف ونقل نصها الحرفى على جانب مدخل قبره وإنى أقدمه هنا مترجماً ترجمة حرفية

لإعطاء فكرة عن صيغة خطابات ذلك العهد ، ولكن يجب ألا ننسى أنه خطاب من طفل صغير حديث السن :

، الختم الملكى نفسه ، فى السنة الثانية الشهر الثالث من فصل الصيف اليوم الخامس عشر ، .

رسالة ملكية إلى الصديق الأوحد ، الكاهن المرتل ، ورئيس الحملة حر خوف : فهمت نص خطابك هذا الذى بعثت به إلى الملك فى القصر لتحيطه علما بأنك عدت سالما من بلاد إيام مع حملتى التى كانت معك ، وذكرت فى رسالتك أنك أحضرت جميع الهدايا الكثيرة الجميلة التى قدمتها الإلهة حتحور سيدة بلاد ، إماوو ، إلى ذات ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع (پپى الثانى) عاش خالدا إلى الأبد . وذكرت فى رسالتك هذه أنك أحضرت قزما لأجل رقصة الإله من أرض الأرواح ، وهو شبيه بالقزم الذى أحضره قائد السفينة ، باور دد ، من بلاد پونت ، فى عهد الملك ، إسيسى ، . وقلت لجلالتى : ، لم يحدث أبدا أن جاء بمثله أى شخص آخر ذهب إلى بلاد إيام من قبل ، . لقد أحسنت حقا بعمل ما يحبه سيدك ويشكرك عليه ، إنك تصبح وتمسى فى تحقيق كل ما يحبه ويريده ويأمر به مولاك ، وسيكافئك جلالته كثيرا وسيمنحك ما سيعتز به ابن ابنك إلى الأبد وسيقول كل من يسمع بما فعله جلالتى من أجلك : هل هناك مثيل لما عمل لأجل الصديق الأوحد حر خوف عندما سافر إلى بلاد إيام فأظهر يقظة فى تنفيذ ما يأمر به ويحبه ويمدحه مولاه ؟

تعال إلى الشمال . تعال سريعا إلى القصر ، وأحضر معك هذا القزم الذى جئت به من أرض الأرواح حيا سالما وفى صحة جيدة ليرقص للإله ، ويدخل السرور آلاف المرات على قلب ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع عاش إلى الأبد .

فإذا ما نزل معك إلى السفينة فعين أشخاصا أذكياء على جانبيها لملاحظته حتى لا يقع فى الماء . وإذا نام فى الليل فعين رجالاً أذكياء ليحرسوه فى حجرتـــه ، وفتش (عليهم) عشر مرات كل ليلة ؛ لأن جلالتى يجب ن يرى هذا القزم أكثر من هدايا المناجم وهدايا بلاد پونت . فإذا وصلت إلى القصر ومعك هذا القزم حيا سالما وفى صحة جيدة فإن جلالتى سيعمل لأجلك أشياء كثيرة أكثر مما عمل لأجل قائد السفينة ، باور دد ، فى أيام الملك ، إسيسى ، ؛ لأن رغبة جلالتى هى رؤية هذا القزم .

وقد أعطيت الأوامر لحاكم المدينة الجديدة ، الرفيق المشرف على الكهنة ليأمر بإعداد ما يلزم من مأكل وشراب فى كل استراحة ملحقة بالمخازن وفى جميع المعابد بلا استثناء ، .

ببى - نخت :

لم يستمر نشاط حر خوف فى قيامه بتلك الحملات أكثر من سبعة أعوام قام خلالها بالحملات الأربع ثم تلاه فى هذا العمل حاكم آخر امتاز بشدة اليأس وكان اسمه « ببى نخت » الذى يقص علينا فى تاريخه الذى كتبه فى قبره فى اسوان شيئا كثيرا عن نشاطه فى الجنوب .

كانت صلة مصر بقبائل النوبة فى أيام ونى وحر خوف صلة صداقة وتعاون ، ولسنا نعرف السبب الذى جعل بلاد إرثت (حول بلدة توماس فى النوبة) تتعرض لغضب الملك فيكلف « ببى نخت » بتأديبهم :

« أرسلنى جلالة مولاى لأؤدب بلاد إرثت فقمت بما جعل مولاى يثنى على وقتلت منهم عدداً كبيراً ، من بينهم أبناء الزعماء ورؤساء المحاربين ، وأحضرت منهم أسرى إلى القصر . كان عددهم عظيما ، لأنى كنت شجاعا ومعى جيش كبير من الجنود الأشداء » .

ويذكر هذا الشخص فى موضع آخر من نصه بأنه ذهب مرة أخرى إلى تلك البلاد لتهدئة الحالة فيها ، وأحضر معه عند عودته زعيمى الثوار ومعهما هدايا من الثيران والأبقار . من المحتمل أن هذه الحملة الثانية لم تكن حملة حربية وإنما كانت لإصلاح مع عساه أن يكون قد أفسدته الحملة الأولى .

ويقص علينا أيضا أن الملك ببى الثانى كان قد أمر أحد ضباطه ببناء سفينة كبيرة على ساحل البحر الأحمر للإبحار بها إلى بلاد پونت ، ولكن بدو الصحراء الشرقية هاجموه وقتلوه هو ومن كان معه . فلما علم الملك بذلك أمر ببى نخت بإعداد حملة وأن يذهب للثأر للضابط المقتول وإحضار جثته [1] ، وقد قام بذلك وقتل من أولئك البدو عددا عظيما . وترينا هذه القصة الأخيرة كيف أصبحت سلطة الملك محدودة وأنه كان يعتمد على ولاء حكام الأقاليم الأقوياء لتنفيذ ما يريده .

ميخو وسابنى :

ولم تحل أعمال ببى نخت فى بلاد النوبة دون استمرار حملات الاستكشاف والتجارة من آن لآخر ، ونعرف من مقابر أسوان أيضاً قصة اثنين من أولئك الرحالة وهما ميخو وابنه سابنى تركا لنا نقوشا فى مقبرتهما بأسوان عرفنا منها أن الأب دفع حياته ثمنا لتفانيه فى خدمة سيده الملك إذ قتله رجال إحدى القبائل النوبية عند عودته

من إحدى رحلاته (١) .

ويذكر سابنى أن أباه كان حاكما لإلفنتين وكان يحمل لقب رئيس الحملة كما كان يحمل عدة ألقاب كهنوتية ، وعينه الملك فى كل تلك الوظائف كما أسند إليه أيضا وظيفة حاكم الجنوب عندما نجح فى إحضار جثة أبيه والإنتقام ممن قتلوه . ويذكر لنا سابنى أن بعض الناجين ممن كانوا مع أبيه قصوا عليه ما حدث : « وعندئذ اصطحبت جنودا من رجالى ومائة حمار وأخذت معى عطورا وعسلا وزيتا وملابس لأقدمها هدايا فى تلك البلاد . واتجهت إلى النوبيين بعد أن بعثت بخطابات إلى الملك بأنى سافرت لإحضار الجثة من بلاد واوات وأرثت ولأهدىء الأمور فى تلك المناطق » . ويستمر فى قصته فيقول إنه عثر على جثة أبيه فى منطق نائية بعيدة فصنع لها تابوتاً حمله على ظهر حمار ثم سار مخترقا البلاد حتى رجع إلى واوات (منطقة كورسكو) وأرسل خطابا إلى الملك ينبئه بما حدث ، كما أرسل إليه ما أحضره معه من هدايا . وأراد الملك أن يظهر عطفه على كل من ميخو وابنه سابنى فأمر بإرسال المحنطين الملكيين من منف ومعهم كل ما يلزمهم لعملهم ، ودفنه دفنة تليق بأحد حكام الأقاليم الذين ضحوا بحياتهم فى خدمة ملكهم ، وأمر بأن يتولى سابنى وظائف أبيه وكتب له قائلا : « لقد فعلت كل هذه الأشياء العظيمة مكافأة لك على عملك الكبير ، لأنك أحضرت جثة أبيك » .

هذه بعض قصص الرحالة المصريين الذين ذهبوا لاكتشاف البلاد الواقعة إلى الجنوب وليفتحوا طرقاتها للتجارة . قام المصريون بتلك الرحلات فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ليكتشفوا قلب القارة الإفريقية قبل أن يولد ستانلى ولفنجستون وغيرهما من الرحالة الحديثين بأكثر من أربعة آلاف ومائتى عام.

كانوا يذهبون إلى الجنوب تنفيذا لسياسة أسسها ملوك الأسرة الخامسة وشجعها واهتم بها اهتماماً خاصاً ملوك الأسرة السادسة ، وقد كانت رحلات أولئك الرحالة وما أنشأوه من صلات مع زعماء القبائل ما حصلوا عليه من معلومات عن البلاد ، تمهيداً لصلات سياسية أقوى كما سنرى عند الحديث على الدولة الوسطى .

الثورة الإجتماعية :

وصلت حالة مصر إلى الحضيض فى أواخر أيام الأسرة السادسة وعمت

الفوضى ، فلما طفح الكيل لم يجد الشعب أمامه طريقاً غير الثورة على تلك الأوضاع ، والإنتقام لنفسه ممن كانوا عليه سوط عذاب .

ومصادرنا عن تلك الثورة ووصف ما حدث فى البلاد ، تنحصر فيما جاء فى برديتين إحداهما تسمى بردية « إيپو ور » (١) والثانية تسمى بردية « نفرتى » (٢) وقد كتبت أولاهما وهى الأهم على لسان شخص حكيم استطاع أن يصل إلى مقر الملك الذى لم يذكر اسمه ويطلب منه العمل على إنقاذ البلاد مما تردت فيه ، ويصف له حالتها السيئة فى لغة بليغة .أما الثانية فقد كتبت بعد تلك الثورة ، كتبها كاتبها كدعاية سياسية للملك أمنمحات الأول (يسميه باسمه المختصر أمينى فى النص) وينسب أصل حوادثها إلى عهد الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة الذى طلب من رئيس الكهنة المرتلين فى معبد الآلهة « باست » ويسمى « نفرتى » أن يحدثه عن شىء سيحدث فى المستقبل فقص عليه ما سيحدث فى البلاد من فوضى ويطيل فى وصفها ثم يقول أخيراً أن الذى سينقذ مصر من تلك المحنة ملك اسمه أمينى يأتى من الجنوب وأمه نوبية ويولد فى الصعيد .

وليس فى استطاعتنا أن نقدم هنا نص هاتين البرديتين ، ويكفى أن نشير إلى بعض ما جاء فيهما (٣) .

لقد انقلبت البلاد إلى عصابات ، ولم يعد الناس يحرثون حقولهم ، وأضرب الناس عن دفع الضرائب ، وتوقفت التجارة الخارجية وهجم الناس على مخازن الحكومة فنهبوها وعلى مكاتب الدولة فبعثروا محتوياتها . بل أن الملوك المدفونين قد اعتدى عليهم أيضاً وبعثروا أشلاءهم وأصبحت أهرامهم خالية مما كان فيها . وصب الشعب انتقامه على الأغنياء فنهبوا القصور وحرقوها وصار أصحابها محزونين يبكون، بينما كان عامة الشعب يفرحون ويحتفلون . وأصبح الذين كانوا يملكون الرقيق يسيرون فى أسمال بالية . وأولئك الذين لم يملكوا شيئاً فى حياتهم يرفون فى ملابس من خير أنواع الكتان . ويسخر الكاتب مما كان يراه فيقول إن الأصلع الذى لم يكن يستخدم الزيت أصبح يمتلك الأوانى الملأى بخير أنواع العطور ، وأن الذى لم يمتلك صندوقاً صغيراً في حياته أصبح مالكا لصندوق كبير ، والفتاة التى كانت تذهب إلى الماء لترى وجهها أصبحت مالكة لمرآة .

وياليت الأمر وقف عند ذلك الحد فقد صب الناس نقمتهم على أطفال الأغنياء فصاروا يقذفون بهم الجدران ، وترك الناس أطفالهم الذين طالموا تمنوا ولادتهم ، ألقوا فى الطريق عساهم أن يجدوا من يمد إليهم يده .

حتى رجال الأمن الذين كان الناس ينتظرون منهم أن يوقفوا تلك الأحداث أصبحوا فى مقدمة الناهبين ، وإنهارت الحكومة المركزية وأصبح الأغنياء فى حزن وغم بينما كان الفقراء فرحين . وكانت كل مدينة تقول ، فلنطرد بعضنا منها ، ومما زاد الحالة سوءا أن عصابات من البدو الذين كانوا يسكنون على حدود مصر فى الشرق وربما أيضا فى الغرب انتهزوا هذه الفرصة فأخذوا يتدفقون على قرى الدلتا وينهبون ما يجدونه مع الناس ، ولم يعد أخ يثق فى أخيه أو صديق فى صاحبه .

إذن لقد انتقم الشعب ، وثار الفلاح الصابر المطيع عندما وجد الظلم قد ازداد ، وأن الأغنياء قد سلبوه كل شيء ، ثار ثورته الجامحة فلم يبق على شيء ولم يفرق وهو فى ثورته بين معبد لإله أو ديوان للحكومة ، أو قصر لغنى ، أو مخزن للدولة ، أو قبر دفنوا فيه حليا مع صاحبه ، ولكن مثل هذه الحالة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد فلابد للناس من أن يعودوا إلى الهدوء بعد الثورة وأن يحاولوا خلق مجتمع ونظام جديدين . وإذا كانت الحقول قد تركت دون زراعة وتعكرت مياه النيل بلون الدم وملئت بجثث الموتى ، كان لابد للناس أن يهدأوا وأن ينتجوا ليعيشوا . ولم يعد الشعب يجد من يصب عليه مزيدا من غضبه أو شيئا يمكنه أن يغتصبه ممن كان يملكه ، فخلد إلى الهدوء

وتطلع إلى الذين احتلوا منه مكان الزعامة والمشورة ليخرجوه مما هو فيه ليبدأ حياة جديدة ، لأن الهدم سهل وميسور ولكن البناء شيء آخر يحتاج إلى خيرة ومران .

ومضت فترة طويلة قبل أن تعود مصر إلى ما كانت عليه ، وسنرى في الفصل القادم ماذا حدث خلال عصر الفترة الأولى .

obeikandl.com